

مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
موسوعة
لبنان
تاريخ، سياسة وحضارة
فينيقيا
احتلالات ومستعمرات

لبنان

تاريخ سياسة وحضارة

بين الأمس واليوم

الجزء الثاني

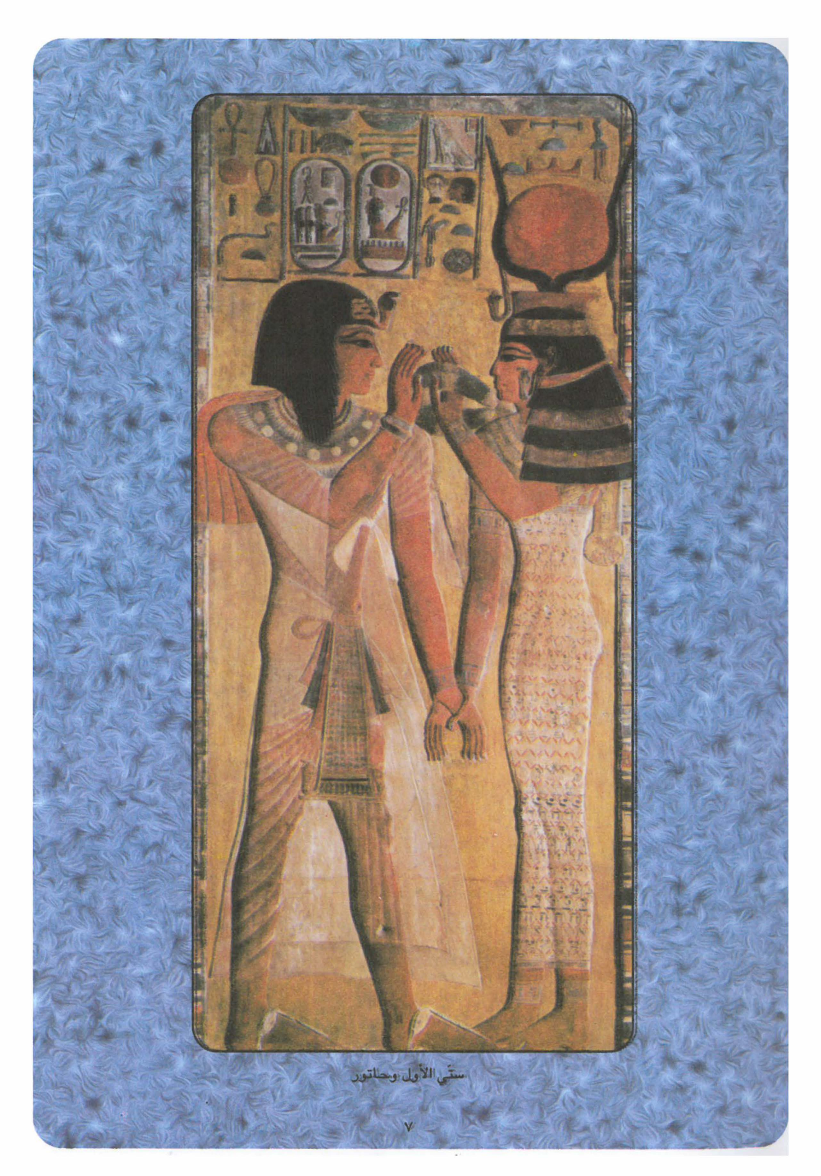
فينيقيا

احتلالات ومستعمرات

من الفراعنة إلى الفرس

إيلين زغيب عيسى

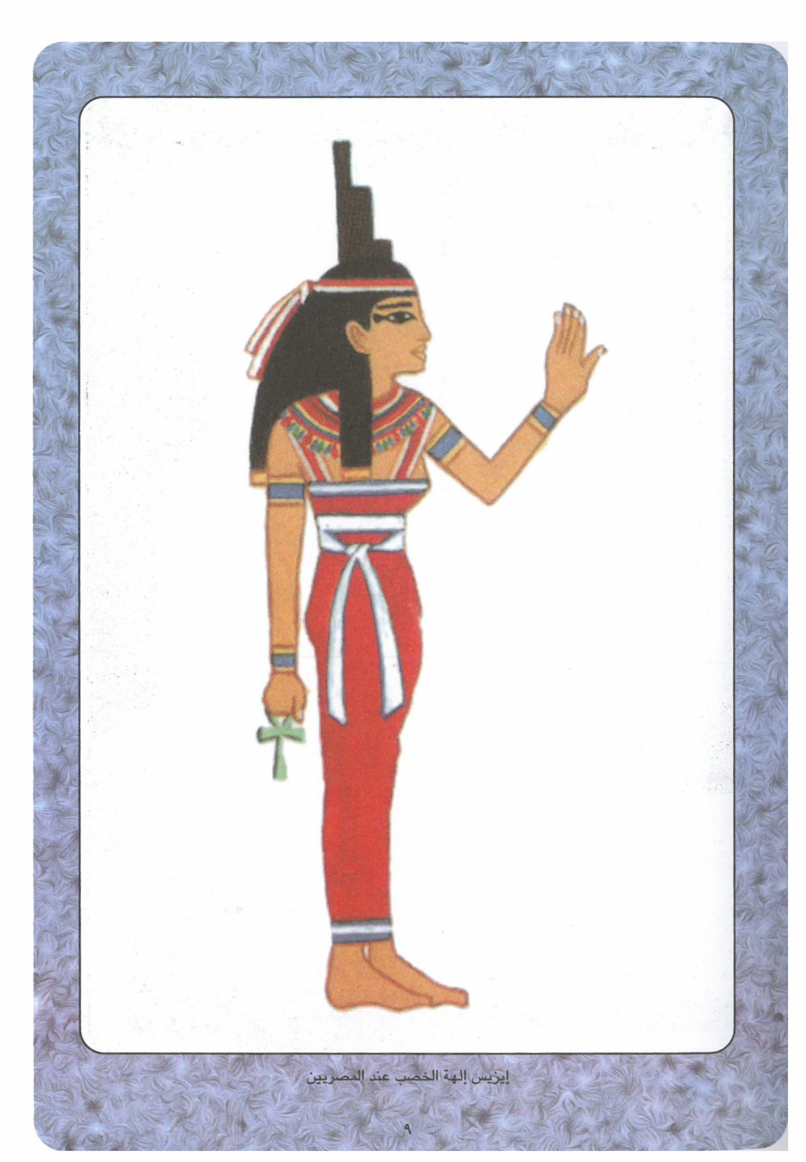
ملحق الصور



سَتي الأول وحاتور



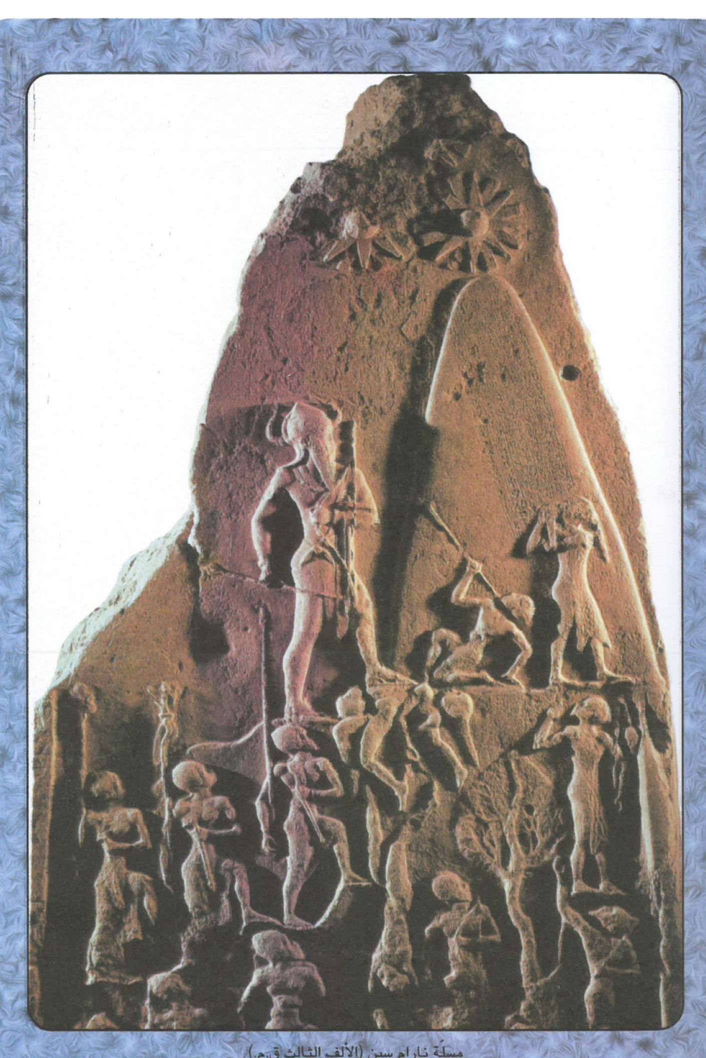
نفر تيتي الفينيقية وزوجها



إيزيس إلهة الخصب عند المصريين



رعمسيس الثاني جاثياً أمام الإله أمون



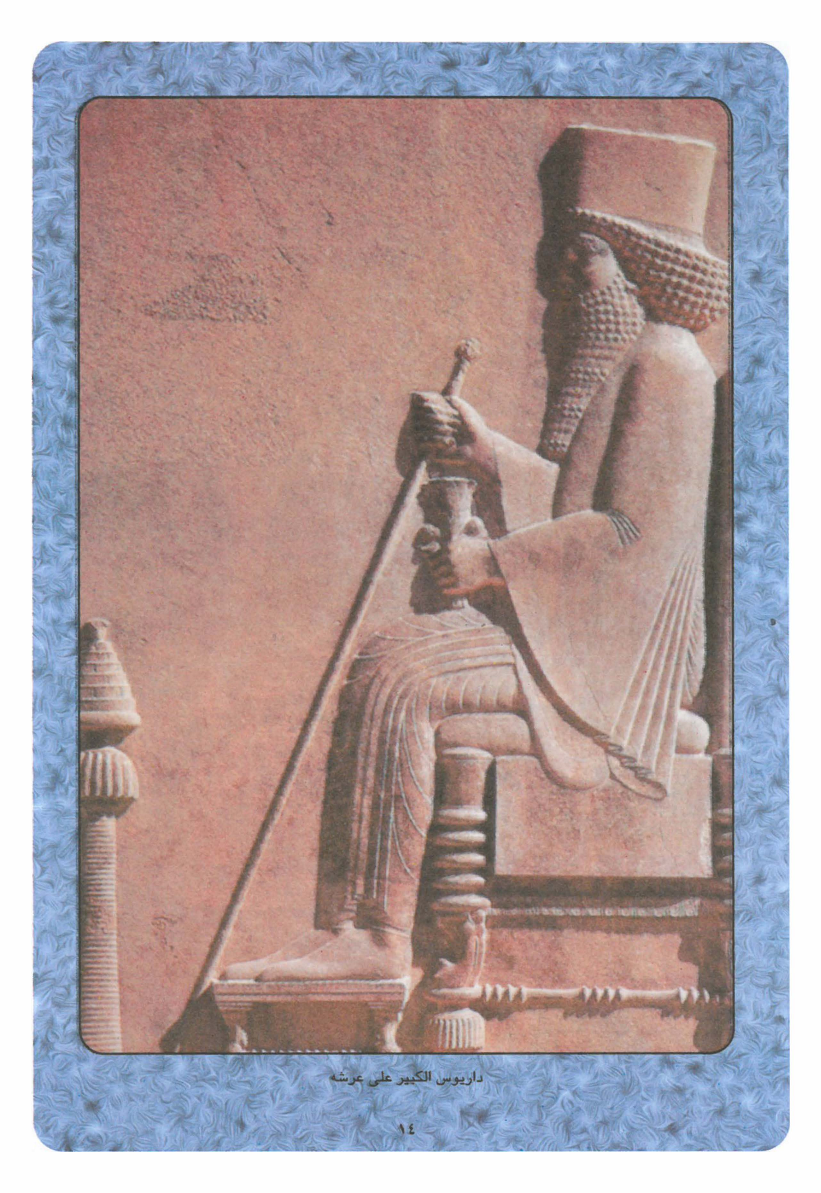
مسلة نارام سين (الألف الثالث ق.م.)



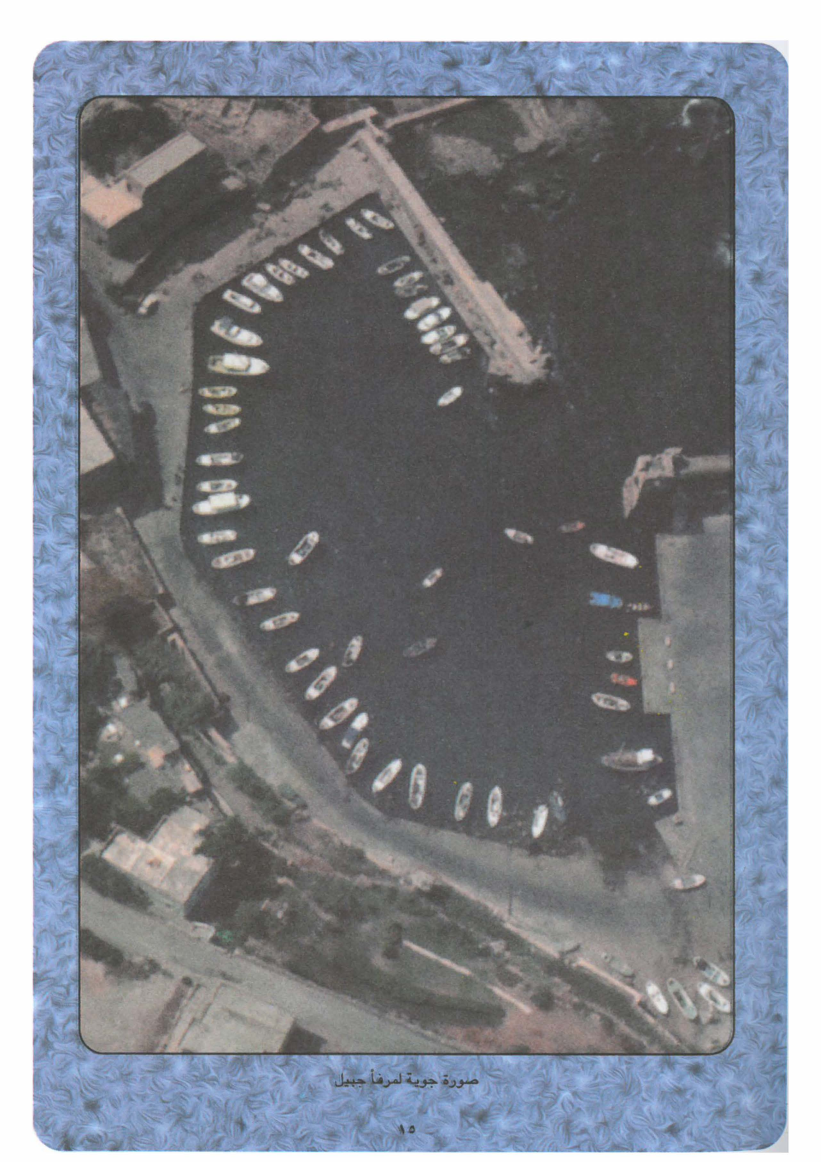
أشور بانيبال على عربة النصر



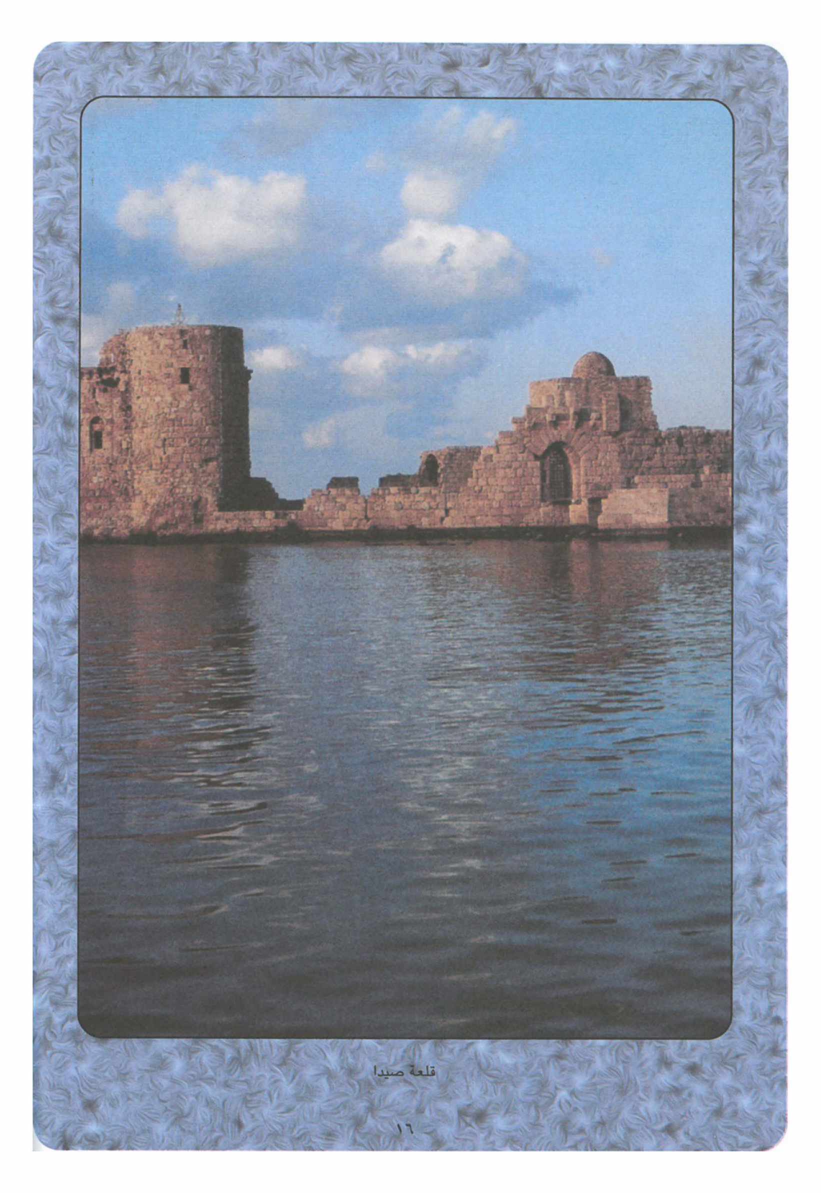
نقش يمثل جنوداً أشوريين



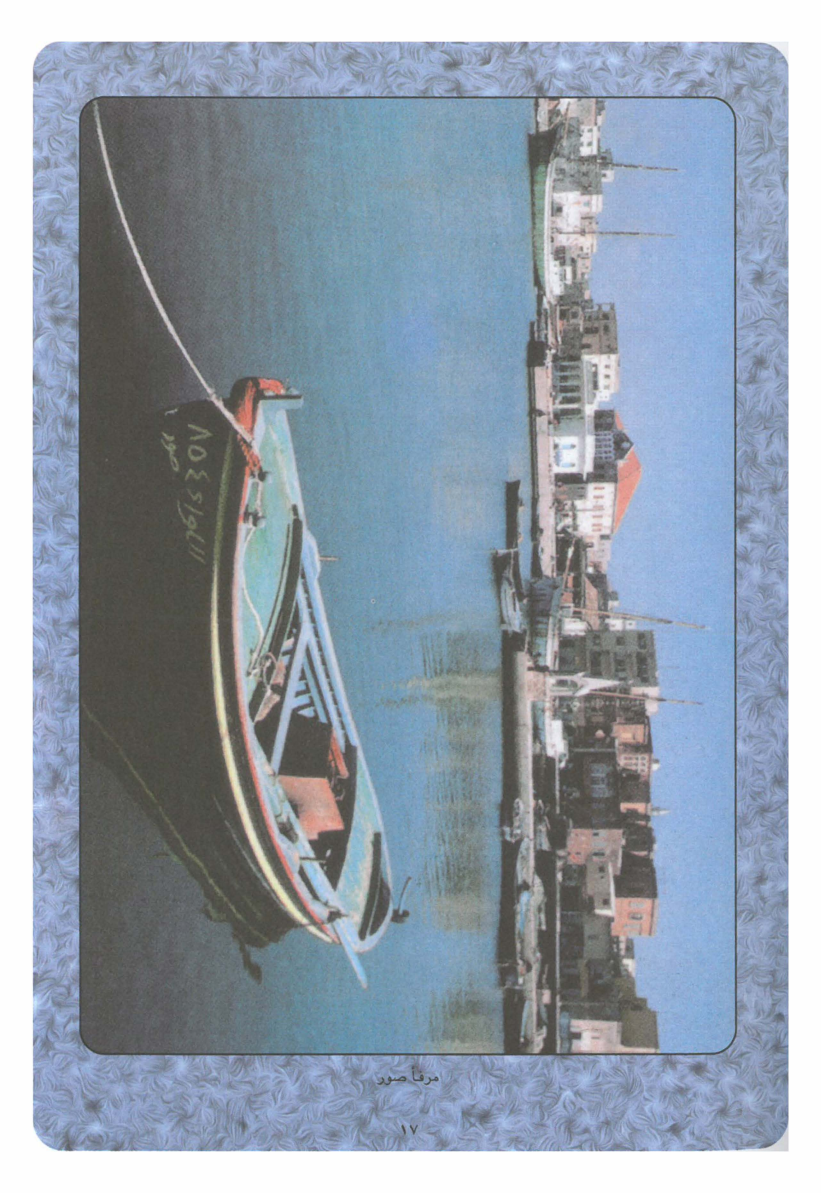
داريوس الكبير على عرشه



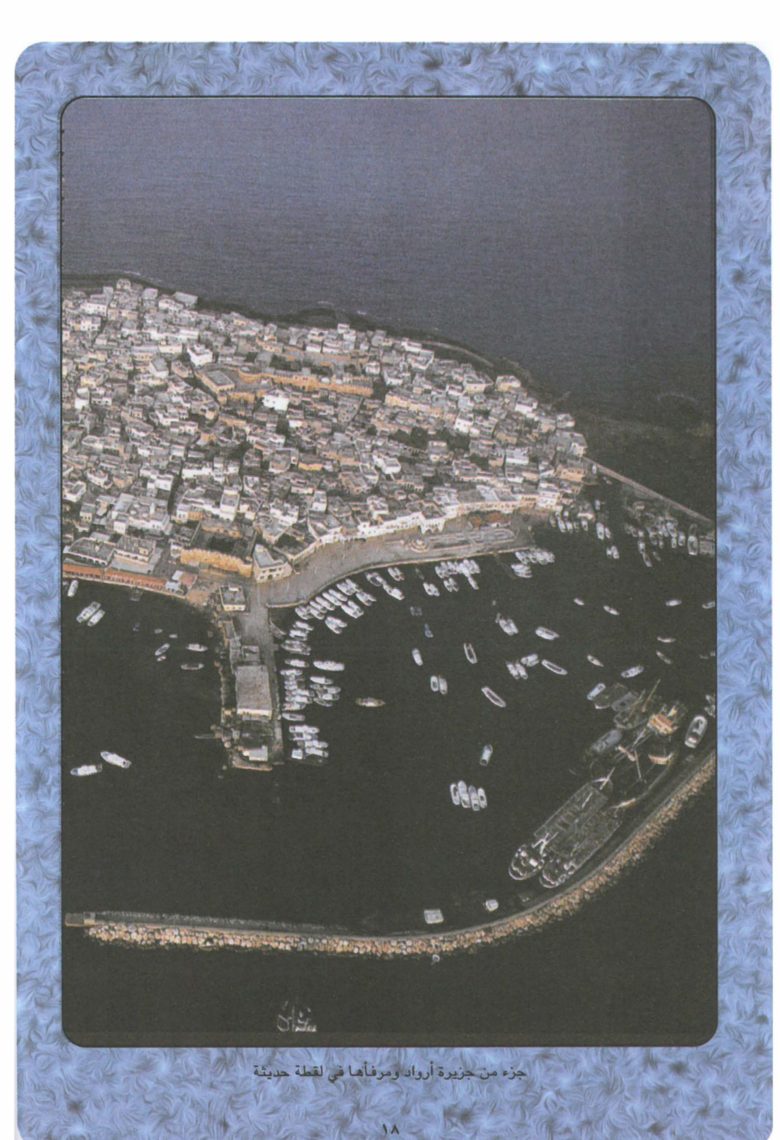
صورة جوية لمرفأ جبيل



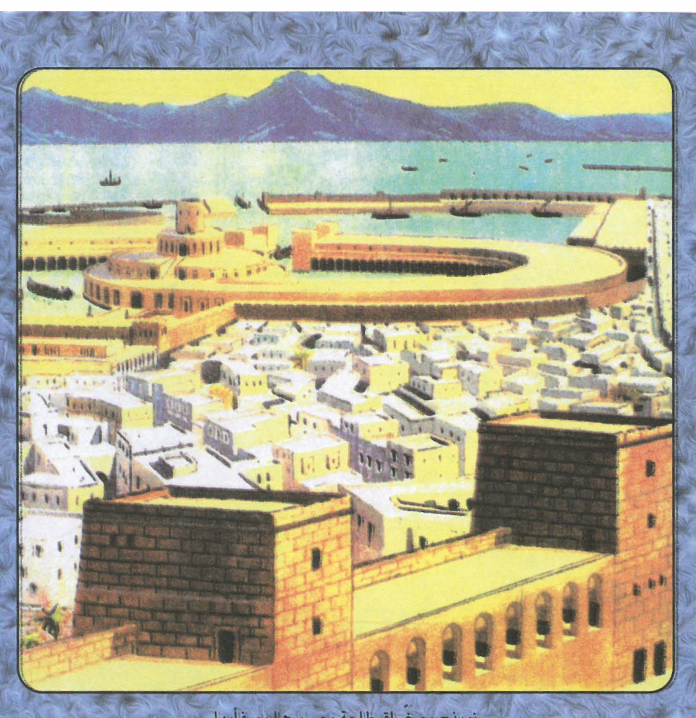
قلعة صيدا



مرفأ صور



جزء من جزيرة أرواد ومرفأها في لقطة حديثة



نموذج مصغّر لقرطاجة مع سورها ومرفأيها

شهود على صخرة نهر الكلب

على صخرة نهر الكلب متحف طبيعي يسلسل الحقبات المتتالية التي تتابعت على لبنان، وكأنه اختصار أو عناوين لأهم المراحل التي طبعت تاريخ هذا الوطن منذ العهود القديمة إلى عهد الاستقلال.

فعلى هذه الصخرة تسعة عشر نقشاً تؤرِّخ تواريخ الأحداث وأسماء المحتلين الذين كانوا يندحرون أمام هذه الصخرة أو يتجاوزونها. وهذه النقوش مكتوبة بثماني لغات: المصرية القديمة، الأشورية، البابلية، اليونانية، اللاتينية، الفرنسية، الانكليزية والعربية. وعليها كتابات منذ القرن الثالث عشر وحتى العام ١٩٤٦، تاريخ جلاء الجيوش الأجنبية عن لبنان.

وأهمّ ما في هذه النقوش، نقش للقائد الروماني ماركوس ايروليوس أنطونيوس الذي توفي سنة ١٨٠م، ويدلّ النقش إلى إنشاء الطريق المحاذية لصخرة نهر الكلب، والتي يُرجح أن تكون قد أنشئت ما بين العامين ١٧٢ و١٨٠.

ومن النقوش ثلاثة أشورية وستة مصرية. وأحد هذه النقوش المصرية قد زال وحلَّت محلّه كتابة فرنسية سجّلها الجنود الذين أتوا إلى سوريا في العام ١٨٦٠.

أما النقش المصري الثاني، فعليه رسمان غير واضحين للإله رع إلٰه الشمس والفرعون يقدّم له تقدمة إضافة إلى بعض الكتابات المصرية. أمّا النقش المصري الثالث، فيمثل أيضاً الفرعون يقدم تقدمة للإلٰه أمون.

أما النقوش الأشورية الستة، فتمثل في الغالب رسوماً لأشخاص أشوريين رافعين أيديهم أو واضعينها على صدورهم. وأحدها عليه رسم ظاهر يُعتقد أنه لملك أشوري يرتدي رداء طويلاً وعلى رأسه طربوش وله لحية طويلة مجعّدة،

وفوق الرسم عدد من الرسومات الرمزية وكتابات بعضها ظاهر وبعضُها أفسده الزمن.

ويُظن أن النقوش الأشورية قد حُفرت بأمر من المَلك الأشوري سنحاريب الذي اجتاح سوريا بجيش كبير معزز، بعد تولية الخلافة الأشورية سنة ٧٠٣ ق.م.

ولكن آخرين يستبعدون أن يكون ملكاً واحداً قد أمر بنقش ست لوحات في مدة قصيرة من الزمن. ويعيدون حفر هذه النقوش إلى عدد من الملوك الأشوريين الذين توالوا على احتلال لبنان أو قاموا فقط بالمرور في الأرض اللبنانية.

وقدم إلى بلاد سوريا خمسة من ملوك أشور هم: فول، تغلت فلسر، شلمنصّر، سرجون، وسنحاريب. وليس غريباً أن يكون هؤلاء قد أمروا بحفر نقوش على صخرة نهر الكلب افتخاراً بمآثرهم العسكرية، لأن العبور من البلاد الأشورية مروراً بمصر وصولاً إلى البلاد السورية كان يعتبر صعباً جداً في تلك العصور.

وأسهم موقع لبنان في ملتقى طرق العالم القديم: بلاد ما بين النهرين ومصر والفرس واليونان، في إبرازه إلى واجهة الأحداث التاريخية وأيضاً في جعله محطّ أنظار التجار والحكام الذين طمعوا في أن يكون لهم ولجيوشهم موطن قدم في هذا الموقع المميّز.

وممّا زاد طمع الحكام المجاورين ببلاد كنعان أنها كانت واجهة بحرية طويلة، وهي تشكل بالتالي قواعد للمراكب ومنطلقاً نحو القارات الأخرى، كما أن الساحل الفينيقي كان طريق تجارة دولياً، تمرّ فيه القوافل المحمّلة بالأغذية والأدوات، كما كان طريقاً حربية تعبره قوافل المحتلّين، إضافة إلى ما تتحلّى به هذه الأرض من خير وفير وثمار ومناخ طيّب.

وكانت المدن الفينيقية غالباً ما تخضع للمحتل، **أولاً**: بسبب ضعفها العسكري وعدم قدرتها على المقاومة في وجه الجيوش الجرّارة، **وثانياً**: لأنها كانت في معظم الأحيان مدناً متنافرة متنافسة، **وثالثاً**: لأنها كانت تخاف على

تجارتها وتطمع في الوقت نفسه بانفتاح أسواق جديدة أمامها.

ولم تلجأ المدن الفينيقية إلى المقاومة الفعلية، إلاّ حين يصبح الاحتلال خطراً على كيانها، كما حصل في صور التي تمرّدت على نبوخذ نصّر الكلداني ثم على الاسكندر المقدوني، أو كما تمرّدت صيدون في وجه ارتحششتا الثالث ملك الفرس. ولا يمكن تجريد الفينيقيين من الدوافع الوطنية الكامنة التي انطلقت وظهرت بقوة مرات عدة، عندما قاوموا باستبسال ضد العدو الخارجي، وقبلوا حتى أن يضحّوا بالاستقرار وبازدهار تجارتهم حفاظاً على كرامتهم الوطنية.

وكما قلنا فإن المدن الفينيقية المتنافسة كانت تتّحد عندما يحدق بها الخطر الخارجي أو عندما تشعر بأن مصالحها التجارية مهدّدة. وقد كان هذا الاتحاد في الغالب موقتاً ومرحلياً.

ومن الأمثلة على هذا الاتحاد، اتفاق جاليات أرواد وصور وصيدون على إنشاء ندوة للتشاور والتحاور في أوقات المحن. وكان مقر الاجتماعات في مدينة طرابلس الشمالية. ومن هنا اسم هذه المدينة Tripolis، أي المدن الثلاثة.

الفصل الأول

عصر السيادة المصرية

بدأت العلاقات الفينيقية ـ المصرية تجارية أولاً منذ عهد المملكة القديمة في مصر. ولمّا أتى عهد المملكة المتوسطة التي تعتبر أقوى مملكة في حكم الفراعنة بدأت العلاقات تتخذ طابع السيطرة السياسية لمصر على المدن الفينيقية، وحصلت هذه السيطرة بفعل تغلب المملكة المصرية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً على المدن الفينيقية المستقلة، كما ذكرنا سابقاً.

وسيطرت المملكة المتوسطة (١٩٠٢ ـ ١٨٢٨ق.م.) على جزء واسع من فينيقيا، وامتدت هذه السيطرة من فلسطين إلى لبنان وصولاً إلى حدوده الشمالية. كما سيطرت مصر آنذاك على مدينة دمشق وحوران، وظلت السيطرة المصرية حتى العام ١٥٠٠ ق.م. تقريباً في عهد الفرعون سنوسرت الثاني.

وفي تلك الحقبة أصبح هناك نوع من تمثيل دبلوماسي بين البلدين. فكان للفراعنة سفراء أو مفوضون لدى المدن الفينيقية.

وقد استباح الحكم الفرعوني خيرات فينيقيا ردحاً طويلاً من الزمن، وكان يأخذ أولاد ملوكها رهائن لتربيتهم على الطريقة المصرية لضمان ولائهم.

العلاقات التجارية بين مصر وفينيقيا

منذ عهد مصر السفلى ثم مصر العليا، وبعد اتحاد مصر العليا والسفلى في دولة واحدة عُرفت بالأسرة الأولى، كانت العلاقات التجارية ناشطة بين فينيقيا ومصر.

ومن أبرز مواد التبادل التجاري خشب الأرز، الذي كان المصريون يستوردونه من لبنان. وكان يُستعمل في مقابر الفراعنة ولصنع المراكب والأثاث. وازدهرت تجارة خشب الأرز ازدهاراً كبيراً، وقطعت منذ ذلك العصر أشجار أرز كثيرة.

إضافة إلى الأرز، كان الفينيقيون يصدّرون إلى مصر الأواني الخزفية، والعديد من السلع مثل الخمور وزيت الزيتون والصموغ التي تنتجها جذوع الأشجار والتي كان المصريون يستعملونها لتحنيط الموتى.

وفي المقابل، استورد الفينيقيون من مصر سلعاً عدة يفتقدون وجودها في أرضهم، وأهم هذه السلع الذهب والمعادن وأوراق البردي التي تنمو على ضفاف النيل، والتي كانت تستعمل للكتابة.

وقد ازدهرت العلاقات التجارية بين فينيقيا ومصر طوال عهود المملكة المصرية القديمة (٢٧٠٠ ـ ٢٢٠٠ ق. م). وكانت طرق نقل البضائع موزّعة بحراً وبراً.

وكانت الطريق البرية تنطلق من دلتا النيل وصولاً إلى صحراء سيناء. ومن هناك تسير شمالاً نحو فلسطين وجنوب لبنان، كمدن صور وصيدا وصولاً إلى طول الساحل حتى حمص. ومن سيناء تنطلق طريق أخرى نحو الجنوب في اتجاه سهل البقاع فدمشق ومن دمشق إلى حمص، حيث تلتقي الطريقان التجاريان.

وهذه الطريق الدولية التجارية كانت أيضاً طريقاً عسكرية، يتبعها الغزاة في طريقهم إلى احتلال المدن الفينيقية.

وقد ازدهرت العلاقات التجارية المصرية ـ الفينيقية ازدهاراً كبيراً واتخذت طابع المودة والصداقة أحياناً بين الشعبين وبين حاكمي البلدين. وتطورت هذه العلاقات أيضاً إلى علاقات حضارية ودينية. وقامت العلاقة الحسنة خصوصاً بين مصر ومدينتي جبيل وأوغاريت، وكان الحكام يتبادلون الهدايا الثمينة، وعُثر في جبيل على إناء عليه رسم للفرعون خوفو وهو مهدىً إلى الإلهة «بعلة جبيل».

وكان المصريون يقدرون هذه الإلهة ويعبدونها ويرسلون إليها التقدمات والنذور. وحتَّى أن هذه الإلهة الفينيقية شُبِّهت بالإلهة المصرية «إيزيس»، وأقيم لهما معبدان متقاربان في مدينة جبيل، وأصبحت هاتان الإلهتان على مرّ العصور إلهة واحدة.

وفي المتحف الوطني اللبناني، هناك صندوق حجري للحلى كتب عليه اسم «أمنحوتب» الرابع، وهو هدية من هذا الفرعون إلى أمير فينيقي يدعى «يب ـ شمو ـ أب».

دولة الهكسوس (الرعاة)

الهكسوس هم قبائل مجهولة الأصل اجتاحت أولاً سوريا وتوطّنت فيها، وأطلق على هذه القبائل اسم الهكسوس أي الرعاة.

الهكسوس هم في الأساس قبائل سامية امتزجت في الشرق الأوسط بقبائل غير سامية مثل الحوريين والحثيين والمتّانيين. وكان العنصر الأساسي في هذه الشعوب العنصر الكنعاني، ويستدلّ على ذلك من أسماء قواد هذه القبائل المحاربة.

ومع دخول الهكسوس بدأ العرق المتوسطي يختفي في منطقة الشرق الأوسط، ليحلّ محلّه تدريجاً العرق الأرمني.

واتخذ الهكسوس من مدينة قطنة في سوريا عاصمة لهم.

وفرضوا في المنطقة التي أخضعوها نظاماً عسكرياً إقطاعياً، يتحكم فيه القادة العسكريون الذي يملكون السلطة والنفوذ والسلاح والمركبات. وقد حلّ هذا النظام العسكري لفترة من الزمن على الشاطىء اللبناني محل النظام الكنعاني الارستقراطي الذي يعتمد في الأساس على التجارة.

بعد هذه المرحلة انطلق الهكسوس لغزو مصر، وساعدهم في نجاح حروبهم تفوقهم بالسلاح الذي يملكونه والذي فاجأ البلاد المغزوّة. ومن هذه الأسلحة، إذا صح التعبير، استعمال الحصان الذي دخل الشرق الأوسط للمرة الأولى مع غزوات الهكسوس، واستعمل الهكسوس أسلحة معدنية من البرونز والسيوف القوس المزدوج، إضافة إلى العربات، ممّا سمح لهم بالسيطرة على المنطقة في سهولة نسبية.

ويُعتقد أن العبرانيين دخلوا إلى مصر أثناء غزو الهكسوس الذي دام حكمهم حوالي قرن ونصف القرن واستمر إلى العام ١٥٧٠ ق. م. ودام في مصر حوالي الثلاثين سنة.

الحرب المصرية على الهكسوس

بعد ثلاثين سنة من السيطرة الهكسوسية على مصر، بدأ تحرك معاكس بهدف طرد هذه القبائل التي عاثت دماراً وحرباً في وادي النيل.

وأوّل من بدأ الحرب ضد الهكسوس هو أحموس الأول الذي شن في العام ١٥٧٠ حرباً ضدّهم وطردهم من وادي النيل. وكانت هذه الحرب فاتحة حروب واسعة ضد الهكسوس استمرت سنوات، وانتهت إلى استعمار مصر للبلدان التي كان فيها الهكسوس، ومنها طبعاً لبنان.

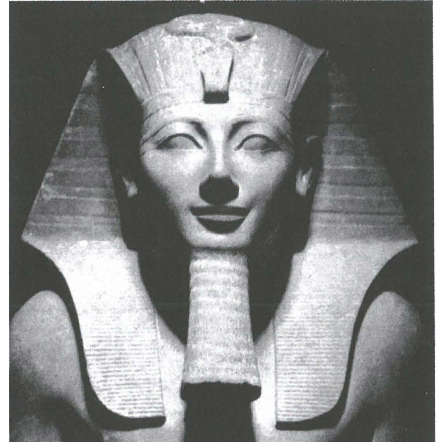
ففي العام ١٥٢٠، تجددت الحملة المصرية بأمر من الفرعون طحوتمس الأول. فسار الجيش المصري ملاحقاً الهكسوس خارج حدود المملكة المصرية شمالاً، فوصل إلى فلسطين، ثم إلى لبنان، وتابع سيره إلى بلاد ما بين النهرين.

ويبدو أن الحرب لطرد الهكسوس من مصر قد أدت إلى فتح شهوة الفراعنة لمدّ امبراطوريتهم بعيداً والسيطرة على أكبر مساحة ممكنة من البلدان تحت حجة مطاردة فلول الهكسوس.

وكانت الضربة القاصمة للهكسوس في الحملة التي شنها المصريون بقيادة الفرعون طحوتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦) ومع هذه الضربة أعاد المصريون سيادتهم ووسعوها وقوّوها أكثر.

حملات طحوتمس الثالث

سجّل التاريخ لهذا الفرعون انتصارات حربية كبيرة في المعارك التي خاضها للاستيلاء على الأرض الكنعانية من فلسطين إلى لبنان وسوريا، والتي قضى فيها نهائياً على قبائل الهكسوس، ومدّ امبراطوريته الواسعة من النيل إلى أرواد.



تحوطمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق.م.)

فبعد معارك طويلة خاضها المصريون ضد الهكسوس منذ العام ١٥٧٠ ضعفت هذه القبائل التي أتت المنطقة غازية بعد قرن ونصف القرن من السيطرة على الساحل الكنعاني. فأتى طحوتمس الثالث ليقطف ثمار هذه الحملات المتتالية.

معركة مجدُّو

مجدُّو مدينة كنعانية دارت فيها المعركة الفاصلة التي سمحت لطحوتمس الثالث بفتح فلسطين بكاملها وصولاً إلى جنوب لبنان.

ففي هذه المدينة حصلت المعركة الأكبر بين الجيش المصري وجيش

التحالف بين ٣٣٠ أميراً سورياً بقيادة أمير قادش، إضافة إلى جيوش وقادة من الهكسوس. وتمكن الجيش المصري من الانتصار في هذه المعركة الحاسمة.

وقد حشد «الحلفاء» جيوشهم في مجدّو، حيث دارت المعركة بين الفريقين، ولاحقت جيوش الفرعون فلول الجيوش المتحالفة حتى أسوار المدينة، وفرّ الجنود بواسطة الحبال، بعدما سُدّت الأسوار. وهكذا استسلمت مجدّو للفاتح المصري.

وبعد دحر جيوش التحالف دخل طحوتمس الثالث سريعاً وفي سهولة نسبية مجتاحاً فلسطين التي خضعت له. ثم تابع سيره شمالاً ووصل إلى جنوب لبنان، حيث أخضع ثلاث مدن على الساحل، لم يحدد المؤرخون أسماءها.

ولم يصادف الفرعون المصري مقاومة تذكر، بعد معركة مجدّو، واستسلمت له المدن تباعاً أو أُكرهت على ذلك. وعلى جدران معبد الكرنك في مصر أن طحوتمس الثالث أخضع ١١٩ مدينة، منها بيروت ودمشق، اللتان استسلمتا تلقائياً. ووصل في فتوحاته إلى شمال سوريا ابتداء من فلسطين وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين، وعاد إلى بلاده ظافراً محمّلاً بالغنائم الثمينة والأسرى.

وبعدا هذا النصر الساحق، جدّد طحوتمس حملته بعد سنة تقريباً، فزحف مرة أخرى على سوريا، وأتمّ سيطرته عليها، واجتاز الفرات، حيث بنى حصناً مازالت آثاره باقية حتى الآن وأرسل إليه ملكا بابل وأشور الجزية.

وبعد أربع سنين من الهدنة، حاولت بعض المدن في شمال ساحل فينيقيا الثورة على المصريين، فقام طحوتمس سريعاً بشنّ هجوم مضاد، أسكت فيه الثوار، فأخضع أرواد وحلب والبقاع، وحاصر قادش ثم دخلها.

وفي السنة الثالثة والثلاثين من حكم طحوتمس الثالث، شنّ هذا الفرعون حملة جديدة على بلاد ما بين النهرين، وبلغ نينوى. فسارع الولاة في تلك المناطق إلى تقديم الجزية خوفاً من سطوته. ومن بين الذين قدّموا الجزية الحثيّون، وفي نقوش مصرية أن الحثيين قدموا «ثماني حلقات من الفضة وحجراً ثميناً كبيراً أبيض ومركبات وأخشاباً».

ومرّة جديدة قاد طحوتمس حملة على المدن الفينيقية لاخضاع من حاول فيها الثورة، وعلى سوريا. وعلى قادش التي ثارت عليه بمعاونة بعض ملوك سوريا، وفي النقوش المصرية أن هذا الفرعون أخذ الجزية أيضاً من جزيرة قبرص دلالة على اتساع نفوذه وجبروته. ويصف لنا تقرير حربي الغنائم في إحدى الغزوات كالآتي:

«غنمنا من ذلك العدو ست كراس من عاج وأبنوس وخشب الخروب المطلية بالذهب إلى جانب ست كراسٍ صغيرة تصلح موطئاً للقدم تابعة لها، وست مناضد من العاج ومن خشب الخروب، وصولجاناً من خشب الخروب مرصّعاً بالذهب والحجارة الكريمة كان يحمله ذلك العدو. وغنمنا تمثالاً لذلك العدو من الأبنوس المطلي بالذهب وفي رأس التمثال حجارة من اللازورد».

فتح أرواد

أرواد جزيرة تبعد عن شاطىء مدينة طرطوس السورية حوالي ميل ونصف الميل. وسكانها كانوا أيضاً من الكنعانيين. أرضها خصبة ككل الأرض الكنعانية تقريباً تنعم بالثمار والغلال.

وبعدما فتح الفرعون المصري طحوتمس الثالث بلاد فلسطين والمدن اللبنانية الجنوبية، وبعد انتصاره الساحق في معركة مجدّو، وجّه أنظاره صوب الشمال، وقرّر توجيه حملته هذه المرّة إلى مدينة أرواد.

وقاومت أرواد الجيش المصري مقاومة شرسة قبل أن تسقط في أيدي المصريين، وما ساعدها في المقاومة كونها جزيرة يصعب الوصول إليها وتتمتع بالتالي بموقع استراتيجي.

وبعد سقوط أرواد عامل المحتل أهل الجزيرة معاملة قاسية جداً، وغنم الكثير من خيراتها الوفيرة وأخذ منها الأسرى وبينهم أبناء الملوك وإخوانهم.

وهناك نص مدون على جدران معبد الكرنك في مصر يصف الحملة المصرية على أرواد ويعدِّد الغنائم، وجاء فيه:

«وهدم جلالته مدينة أرواد بما فيها من مخازن للحبوب وقطع جميع أشجارها. وقد وجد جلالته الشاطىء اللبناني الذي تكسوه الجنائن مليئاً بالثمر، خمورهم في خوابيها مبذولة كالماء، وحبوبهم على بيادرهم أوفر من رمل البحر، فقرّت أعين الجيش بوفر الغنيمة».

أما الغنائم التي فُرضت على أرواد فكانت: «٥١ عبداً بين ذكر وأنثى و٣٠ حصاناً و١٠ صحون مفلطحة من الفضة وبخور وزيت و٤٧٠ جرة عسل و٦٤٢٨ خابية من الخمر، ونحاس ورصاص ولازورد وحجر المرو و٦١٦ رأساً من الماشية الكبيرة و٣٦٣٦ رأساً من الماشية الصغيرة وأرغفة من الخبر وحبوب غير مقشورة أو مطحونة وجميع أنواع فاكهة الأرض الطيبة، فكان جيش جلالته يسكر ويتدهن بالزيت كل يوم كأنه في عيد من أعياد مصر».

حملات أخرى

وشنّ الفرعون طحوتمس الثالث حملات أخرى على مدن قريبة من أرواد. ووصل إلى مدينة قادش قرب حمص والتي كانت مركزاً قوياً للمقاومة الهكسوسية.

وبعد طحوتمس الثالث الذي ملك ٥٤ سنة خلفه ابنه أمنحوتب الثاني الذي شن بدوره حملات عسكرية عدة في اتجاه الساحل الكنعاني الممتدّ من فلسطين جنوباً إلى سوريا شمالاً مروراً بلبنان.

أما الفرعون طحوتمس الرابع فشن بدوره حملات على الحثيين، ذُكرت في آثار هيكل أمون في طيبة.

الفصل الثاني

الحثّيون

مع بلوغ الأمبراطورية المصرية أوج مجدها، بدأ يطلع نجم جديد، هو نجم الحثيين. ويعود نسب الحثيين إلى حث بن كنعان بن حام بن نوح، فهم إذاً شعب غير سامي. وكان لأبناء حث فرعان، عاش الفرع الأول في الجنوب، وتحديداً في الخليل في فلسطين، والثاني في الشمال.

وكان حثّيو الجنوب شعباً مسالماً في الإجمال يميلون إلى التجارة والزراعة أكثر ممّا يميلون إلى الحروب والتوسع، ولم يكن لهؤلاء الحثيين قوة يُعتد بها، وسيطر عليهم جيرانهم، فضعفوا وتشتّتوا وطردوا من المدينة.

أمّا حثّيو الشمال فتوطنوا جبل أمانوس أو جبل اللكام، وبلغوا مبلغاً من القوة والسؤدد، بحيث اعتقد بعض المؤرخين أنهم تمكنوا من التوسع جنوباً وشرقاً وصولاً إلى حماة وحمص والفرات ودمشق.

وكان الحثيون الذين توطّنوا الأناضول يهتمون بالتجارة والحرب في آن. وكانوا يتمتعون بتنظيم عسكري جيد ويستعملون الخيول كثيراً والمركبات الحربية.

التوسع الحثي

بدأ الحثّيون توسعهم انطلاقاً من جبال اللكام شرقاً وجنوباً، فوصلوا إلى الفرات. وسيطروا على كركميش وحاربوا الآراميين في عاصمتهم دمشق. واستولوا على حماه ثم قادش التي أضحت مركز قوتهم، وصولاً إلى وادي العاصي. وأصبح لهم حلفاء عديدون في المناطق التي بسطوا سلطتهم عليها.

واتسع نفوذ هذه القبائل الحثّية وقوي بطشها منذ ١٣٨٠ ق.م. في عهد الملك الحثّي شبلوليوما. وقام هذا الملك بحملات عدة ضد مواقع داخل الامبراطورية المصرية، ممّا أسهم في إضعافها.

أول الحملات التي شنّها هذا الملك الحثّي كانت ضد مملكة متّني الواقعة في سوريا، وقد استطاعت هذه المملكة أن تحافظ على استقلالها داخل الامبراطورية المصرية بسبب الصلات الحسنة التي قامت بين مصر وبينها. وعزّز هذه الصلات إعلان أمراء متّني ولاءهم للمصريين وقيام روابط مصاهرة بين الجانبين.

ونتيجة الحملة الحثّية سقطت هذه المملكة المستقلة في أيدي الحثيين. ووجّه هذا السقوط أول ضربة قاصمة للامبراطورية المصرية.

وبعد الانتصار في هذه المعركة وجّه الحثيون أنظارهم نحو بلاد كنعان، فشنّوا حملة على شمال لبنان انطلاقاً من سوريا ممّا سمح لهم ببسط سيطرتهم حتى مدينة جبيل، وقبلها مدينة أوغاريت الكنعانية. وخاضوا لإخضاع هذه المناطق معارك عديدة مع الجيش المصري.

وتمكن الملك الحثي شبلوليوما من التوسع أكثر والوصول إلى جبال طوروس. وفي القرن التاسع عشر ق.م. كان للحثيين مملكة واسعة تمتد من

طوروس. وفي القرن التاسع عشر ق.م. كان للحثيين مملكة واسعة تمتد من الأناضول إلى شمال العراق وسوريا. وجعلوا عاصمتها مدينة كركميش على الفرات جنوب جبال الأناضول. وأصبحت المملكة الحثية من أقوى الممالك في ذلك العصر.

ومع توسع الحكم الحثي وتقوية نفوذه، أصبحت هذه المملكة الغنية تشكل خطراً على الامبراطورية المصرية الهرمة.

المؤامرات والفساد

مع صعود نجم المملكة الحثية وسيطرتها على قسم واسع من أرض كنعان، أصبحت المنطقة مقسمة بين نفوذين: حثّي ومصري.

واستفاد بعض الأمراء الكنعانيين من هذا الاقتسام للسلطة الحاصل بين المصريين والحثيين، وحاولوا بث الدسائس وحياكة المؤامرات بين الجانبين، في محاولة للحصول على منافع خاصة وتوسيع نطاق مملكتهم.

ولم تقتصر المؤامرات على المصريين أو الحثيين، بل أن بعض الأمراء الكنعانيين بثوا الدسائس بعضهم ضد بعضهم الآخر، فحاولت مدينة الاستفادة من دعمها لأحد الجانبين على حساب مدينة كنعانية أخرى، بهدف الحصول على الحظية لدى الفرعون المصري أو لدى الأمير الحثّي.

ونتيجة لهذه الدسائس والمؤامرات دبّت الفوضى في شكل كبير في الأراضي الكنعانية بسبب انقسام السلطات والولاء.

وزاد في هذه الفوضى ظهور قبائل تدعى «الخبيرو» التي استفادت من الجوّ السائد، وراحت تعيث في الأرض فساداً ونهباً وسلباً، وشكلت عصابات منظمة متجولة روّعت المنطقة.

ومن الأمثلة على الفوضى التي دبّت في تلك الفترة مثلان صارخان: خداع الأمير «عبد أشيرتا»، ومصير أمير جبيل «رب أدي».

أ ـ عبد أشيرتا

عبد أشيرتا هو أمير من الأموريين وكان والياً على إمارة تقع عند أعالي نهر العاصي. حاول هذا الأمير بث الدسائس والإفادة من التنازع القائم بين المصريين

والحثيين لتوسيع مملكته الخاصة وجني منافع شخصية. فراح يمتدح المصريين ويعلن لهم الولاء تارة، وتارة أخرى يعلن الولاء للحثيين. وكان يهدف إلى خداع الاثنين معاً.

وتمكّن بالفعل بفضل هذا الخداع من شن حروب عدة، أسقط خلالها عدداً من المدن في سوريا وفي شمال لبنان والتي سقطت تباعاً في يديه. وهذه المدن هي: قطنة وحماة ودمشق وأرواد، وستيجاتا (شكا) وأمبي (أنفة) وبترونا (البترون).

وسيطر عبد أشيرتا أيضاً على مدينة سميرا الموالية للمصريين، بعد مدينة جبيل التي بقيت أيضاً على ولائها للفراعنة المصريين.

وإثر هجمات جيوش عبد أشيرتا على الشاطىء الفينيقي، انقسمت المدن الفينيقية بين موالٍ لعبد أشيرتا ومستمرّ على ولائه للمصريين. فحافظت جبيل وبيروت وصور على ولائها للمصريين، فيما انحازت أرواد وصيدون إلى جانب العصاة.

وقد طلب أمير صور أبي ملك من فرعون مصر مرات عدة أن يمدّه بالمؤن وبفرق عسكرية لحماية المدينة بعدما انضمت صيدون إلى الأموريين.

وهاجمت جيوش عبد أشيرتا وصيدون وأرواد مدينة صور، وقطعت عنها الامدادات وحاصرتها لكنها لم تتمكن من السيطرة على المدينة الحصينة.

وهنا مثل من الرسائل التي بعثها عبد أشيرتا إلى فرعون، ويُظهر فيها التملّق والخنوع:

«إلى الملك، إلى الإلٰه الشمس، مولاي: يقول عبد أشيرتا عبدُك وغبارُ قدميك إني أسجد عند موطىء قدميك، مولاي، سبع مرات وسبع مرات. وأؤكد أني خادم الملك وكلبه الذي يحرس له بيته وكل بلاد أمورو».

ب ـ مصير ملك جبيل

بعد سقوط المدن الكنعانية الواحدة تلو الأخرى في إيدي الحثيين، ثم في

أيدي الملك الأموري عبد أشيرتا، ثم سقوط مدينة سميرا، لم يبق من المدن الفينيقية الموالية للمصريين سوى مدينة جبيل، التي استُفردت في موقفها هذا. وكان الأمير على جبيل في تلك الفترة هو «رب أدي».

وحاول أمير جبيل الخروج من عزلته والحصار السياسي الذي يتعرّض له، باستعانته بالمصريين حلفائه. فبعث لهم الرسالة تلو الرسالة يعرض فيها ما آلت إليه أوضاع المدن الفينيقية ويشرح الحصار الذي يعانيه من عبد أشيرتا والحثيين.

إلاّ أن حكم الفرعون المصري آنذاك كان بدأ يضعف ويتراجع ولم يعد يأبه للحفاظ على نفوذ مصر منتشراً فوق أرض كنعان. فكانت رسائل أمير جبيل تُهمَل مرّات عدة ولا تلقى الجواب، في حين وصلت بعض الرسائل الحاملة وعوداً بالمساعدة. لكن هذه الوعود لم تتحول إلى وقائع، وبقيت حبراً على ورق. وزادت هذه اللامبالاة المصرية وضع هذا الأمير حرجاً وصعوبة، وضيّقت الخناق عليه في وسط معادٍ له ولحلفائه.

واستجاب الفرعون أمنحوتب مرّة لنداءات رب أدي، فأرسل فرقة صغيرة من جيشه لرد العدوان ضد جبيل، فتمكّنت هذه الفرقة من استعادة مدينة سميرا التي كان الملك عبد أشيرتا قد استولى عليها وضمّها. إلاّ أن هذه الفرقة لم تكن قادرة على القيام بأكثر من ذلك، وأن تقف وحدها في وجه جيش الحثيين القوي والكبير، وبالتالي فإن قدوم هذه الفرقة لم يحل مشكلة رب أدي، بل زاد تأزّمها عندما أدت إلى زيادة الحقد عليه لاستنجاده بالمصريين.

ومات الملك الأموري عبد أشيرتا وتسلّم مكانه ابنه عزيرو التي اتبع سياسة التوسع عينها. وواصل غزواته وحربه على المدن الكنعانية. وكان في ذلك يمالق المصريين ويدّعي موالاتهم. وكان المصريون لضعفهم يميلون إلى تصديقه.

هذا الأمر أدّى إلى شد الخناق أكثر فأكثر على الأمير رب أدي، فواصل إرسال الرسائل إلى الفرعون الجديد أخناتون، فلم يلق منه أيضاً كسلفه الردّ المناسب، ولمّا ضاقت به السبل، قرّر اللجوء إلى بيروت، حيث كان أميرها

عمونيرا قريباً له عن طريق المصاهرة. أما زوجته وأولاده فقد سُلموا إلى عزيرو.

ولم يكن لجوء رب أدي إلى بيروت ليشكل مخرجاً لمأزقه. لأن بيروت ذاتها كانت مهدّدة من عزيرو. وبدوره بعث أمير بيروت الرسائل إلى فرعون مصر ليهب لنجدته، ولكن من دون جدوى. ولما وجد أمير جبيل أن بيروت ستسقط بدورها، وأن لا سلاح ولا رجال ولا دعم للدفاع عن نفسه، هرب مرة أخرى لاجئاً إلى صيدا، ولكن صيدا وعلى رأسها الأمير «زمريدا» كانت قد انضمت إلى الأموريين وأعلنت ولاءها للأمير عزيرو.

وهكذا وقع رب أدي في الفخ، فسلّم إلى عزيرو الذي أمر بقتله.

أخناتون وضعفه السياسي

إضافة إلى كلّ ما تقدم من دخول الحثيين والأموريين كقوتين في وجه القوة المصرية، وانتشار المؤامرات والفوضى، فقد أسهم في انهيار الامبراطورية المصرية ضعف شديد تملّك الحكام المصريين وعلى رأس هؤلاء يأتي الفرعون أمنحوتب الرابع (١٣٧٧ ـ ١٣٥٨ ق.م.).

هذا الفرعون لم يهتم كثيراً بالسياسة والعسكر، وأهمل كل هذه الأمور، موجّهاً اهتمامه إلى الأمور الدينية، متأملاً فيها. وهو أول شخص فكّر في توحيد الآلهة، فقد اعتبر أن هناك إلٰهاً واحداً هو «أمون»، أي الشمس، وانصرف إلى عبادة هذا الإلٰه، مهملاً الشؤون الدنيوية، وغيّر اسمه من أمنحوتب إلى «اخناتون» تكريماً للإلٰه الذي يعبده.

بداية انحلال الامبراطورية المصرية في لبنان

بعد كل ما ذكرناه من تداعي الامبراطورية المصرية بسبب المؤامرات والدسائس وضعف الفراعنة المصريين، والأهم بسبب دخول الحثيين إلى المنطقة، وهم شعب عسكري فتي، بدأت الامبراطورية المصرية بتحديد نهاياتها، لولا بعض الانتصارات التي حقّقها الفرعون ستّي الأول، ثم ابنه رعمسيس الثاني، هذه الانتصارات التي لم يتابعها الفراعنة الآخرون.

وحصل في آخر حكم الدولة الثامنة عشرة في مصر ضعف سياسي، جعل مصر تتخلّى عن أملاكها في فينيقيا، في حين كان الحثيون قد بسطوا سيطرة واسعة على المنطقة، امتدت من جبال طوروس إلى الفرات فالبحر المتوسط، مروراً بدمشق.

وأول فرعون من الأسرة التاسعة عشرة كان رعمسيس الأول والد ستّي الأوّل وجدّ رعمسيس الثاني.

الانتصارات الأخيرة

يُعتقد أن رعمسيس الأول ليس من سلالة الفراعنة المصريين. ويدل على ذلك ما يظهر في تماثيل ابنه ستّي الأول وحفيده رعمسيس الثاني من سمات وجهيهما المختلفة عن وجوه ذرية مصرائيم. ويقول العلاّمة ماريات أن رعمسيس الأول أحيا عبادة الآلهة ملوك الرعاة في عاصمة هؤلاء تانيس، وأنه يعتقد أن هذا الفرعون هو من سلالة الهكسوس الذين بقي بعض منهم في مصر، بعد طردهم من البلاد.

وقام رعمسيس الأول بعدما وطد ملكه في مصر بمحاولة لاستعادة المناطق

في سوريا وساحل فينيقيا التي كانت امتداداً للامبراطورية المصرية، ويقول الذين يعزون نسب رعمسيس إلى أصل غير مصري، أن هذا الفرعون أراد الانتقام لآبائه الهكسوس واستعادة ملكهم الذي طردهم منه المصريون أسلافه.

وهاجمت الجيوش المصرية المدن الجنوبية أولاً في فلسطين، فاستسلمت له من دون مقاومة. ولكن هذه الجيوش عندما تقدمت شمالاً لم تتمكن من تخطي وادي العاصي حيث جُبهت بمقاومة عنيدة من الحثيين الذين كانوا في تلك الفترة ذوي سطوة ونفوذ وقوة، فاضطر رعمسيس إلى عقد صلح مع ملك الحثيين سابالت، يقضي بالهدنة بينهما واشتراك الدولتين في محاربة أيّ شعب يهاجم أيّاً من الفريقين.

وهكذا، فإن رعمسيس الأول انطلق لاستعادة ملكه الضائع، لكنه لم يوفَّق. وملك هذا الفرعون ست أو سبع سنين فقط وخلفه ابنه ستّي الأول، ثم حفيده رعمسيس الثاني اللذان تمكنا من تحقيق آماله وطموحاته.

ستّي الأول

تسلَّم الفرعون ستّي الأول (١٣١٧ ـ ١٣٠١) الحكم في مصر، وطمح إلى أن يعيد أمجاد الامبراطورية المصرية التي وطدها الفرعون طحوتمس الثالث وأن يستعيد الأراضي التي سيطر عليها الحثيون والأموريون. فجمع جيشه وقام بشن حرب معاكسة انطلقت من مصر شمالاً وصولاً إلى لبنان الذي تمكن من استعادته بعد معارك مع الحثيين. وفي لبنان اتخذ هذا الفرعون قواعد له وأعدّ مراكب من خشب الأرز، وبدأ بشن حملات جديدة نحو الشمال.

وفي الشمال، أي في سوريا، اصطدم الفرعون ستّي الأول بالجيش الحثّي، وكانت المعركة قاسية والفريقان متكافئين.

واستعرت نار المعركة قرب العاصي وحول قلعة قادش التي فتحها المصريون، إلاّ أنهم لم يتمكنوا من الانتصار على الحثيين في مواقع عديدة أخرى، وانتهت المعركة بعقد معاهدة «عدم اعتداء» فرضت هدنة لفترة ليست بطويلة.

وتنصّ هذه المعاهدة على إعادة قادش إلى الحثيين في مقابل امتناع هؤلاء عن الاعتداء على المصريين أو الثورة عليهم. كما تنصّ المعاهدة على الاشتراك في الدفاع والهجوم ضد أي غازٍ خارجي.

وقام الحثّيون الذين فرضوا شروطهم في هذه المعاهدة بقطع طرقات حلب والفرات التي شكلت حتى ذلك الوقت طرقات لغزوات المحتل المصري، وتراجعت أملاك المصريين إلى القسم الجنوبي من فلسطين والمدن الفينيقية، فيما كان الحثيون في الشمال، وعيَّن ستّي الأول ولاة من جانبه في هذه المدن بدلاً من الحكام المحليين.

ويُعْتقد أن ستّي الأول حكم ما يقارب الثلاثين سنة، قبل أن يخلفه ابنه رعمسيس الثاني.

وسجّل ستّي الأول صوراً ونقوشاً في ردهة الأعمدة في هيكل أمون في الكرنك، تصوِّر غزواته وحروبه وانتصاراته. ومن هذه الصور ما يمثل أهالي جبل لبنان يقطعون خشب الأرز ليقدموه إلى الفرعون ليبني معابده وقصوره. وبعض هذه الصور يظهر حصار قادش وفتحها ومركبات حربية للحثيين حول قلعتها.

وفي هذه الصور يظهر الفرعون عائداً إلى بلاده مظفراً من الحروب التي خاضها، وحوله تجمّع الأسرى الذين يقدمهم إلى الإله أمون، فيما يستقبله الشعب بالتهليل.

رعمسيس الثاني وأقدم معاهدة في التاريخ

قام الملك الحثّي موتالش بخرق الهدنة بينه وبين المصريين فجهَّز جيشاً كبيراً، وشنّ حملة مضادة عليهم وقد فاجأ هذا الجيش المصريين بقيادة الفرعون رعمسيس الثاني (١٣٠١ ـ ١٢٣٤)، وهو ابن الفرعون ستّي الأول وخليفته، وجاءت المفاجأة بفعل حالة الاسترخاء التي فرضتها الهدنة المعقودة.

ودارت بين الجيشين معارك قاسية كان المصريون يندحرون فيها مراراً عديدة، وأهم هذه المعارك تلك التي دارت في مدينة قادش، المعقل الأساسي للحثيين.

هناك كاد المصريون يخسرون المعركة ويعودون على أعقابهم خائبين، لولا كفاءة الفرعون رعمسيس الثاني واستعماله أساليب حربية جديدة. وهكذا تمكّن المصريون من إيقاف المهاجمين الحثيين بصعوبة. ولكنهم لم يتمكنوا من إعادتهم إلى الخلف.

وتراوحت الأجواء بين فترات هدنة وفترات حروب، إلى أن جرى الاتفاق على عقد «معاهدة صداقة وحسن جوار» بين المصريين والحثيين في العام ١٢٨٠ ق. م. وعُقدت هذه المعاهدة بين الفرعون المصري رعمسيس الثاني والملك الحثي حتوشلش خليفة الملك موتالش.

وتُعتبر هذه المعاهدة من أقدم المعاهدات في التاريخ التي تنص على عدم الاعتداء، والتي وصلت إلينا مكتوبة بالكامل بالخطّ المسماري.

ونتيجة لهذه المعاهدة، تمّ تقسيم المنطقة بين منطقتي نفوذ حثّية ومصرية. فكان الشمال من الأناضول إلى شمال سوريا منطقة نفوذ حثية خاضعة لسيطرة الحثيين. أما الجنوب، الممتدّ على طول الشاطىء الفينيقي حتى فلسطين، فقد كان منطقة نفوذ مصرية.

وفي النقش المحفور على جدار هيكل الكرنك عن هذه المعاهدة، أن مفوضين اثنين من قبل ملك الحثيين أتيا الفرعون رعمسيس الثاني بينما كان يقدم التقدمات للإله أمون ويتضرع إليه ليطيل عمره ويسعد عيشه، وهما يحملان على صفيحة فضية شروط الصلح والإخاء التي يراها الملك الحثي، وتمّ توقيع هذا الاتفاق.

وينصّ الاتفاق على عدم الاعتداء بين المصريين والحثيين إلى الأبد، ويكون الملكان والشعبان مثل الأخوة يجمع بينهم الإخاء والتعاون.

وتشترط المعاهدة ألاّ يسطو ملك الحثيين على أرض مصر أبداً، وفي المقابل إلاّ يسطو ملك المصريين على بلاد الحثيين. كما تنصّ على وجوب أن يتشارك الجانبان عند الحاجة والطلب محاربة أيّ عدوّ دخل أرض رعمسيس أو أرض ملك

الحثيين. ويجب أن ينجد الواحد الآخر برجاله وخيله.

وفي هذه المعاهدة أيضاً شروط لتبادل المجرمين والهاربين ولإعادة المهاجرين إلى بلادهم إذا طلب ولاتُهم ذلك، من دون أن يُعتبر ذلك خيانة.

وتختتم المعاهدة بإشهاد آلهة الشعبين عليها، هذه الآلهة التي ستجازي كل من يخالف بنود هذا الاتفاق.

ويبدو أن البلاد الواقعة من جبيل غرباً وجنوباً كانت في عهدة المصريين، فيما كانت البلاد إلى الشمال والشرق من جبيل في عهدة الحثيين.

وأثمرت هذه المعاهدة بالفعل سلاماً بين الجانبين دام قرابة القرن، حيث لم يسجل التاريخ أي حرب وقعت بينهما طيلة هذه المدة.

رعمسيس وصخرة نهر الكلب

كما ذكرنا في فصول سابقة، فإن على صخرة نهر الكلب نقوشاً تُدوِّن تواريخ الاحتلالات المتعاقبة والشعوب التي توالت على لبنان. وأقدم لوحة على هذه الصخرة هي اللوحة التي أمر بنقشها الفرعون رعمسيس الثاني.

فقد أراد رعمسيس أن يسجِّل انتصاراته ويخلدها، خلال الحملات المتكرِّرة التي شنّها على الحثيين على طول الشاطىء الفينيقي. وقد تكون هذه الصخرة والنقش عليها هو علامة حدود للمملكة المصرية، وإذا صحَّ ذلك فإن النفوذ المصري يكون قد امتد من الجنوب حتى نهر الكلب، فيما امتد النفوذ الحثي من هذه الصخرة إلى الأناضول.

ويظهر رعمسيس في هذا النقش وهو يقدم أسيراً كضحية للإله فتاح. وهناك نقش آخر محته الجيوش الفرنسية في العام ١٨٦٠. وكان يبدو فيه رعمسيس أيضاً ممسكاً بأسير يقدمه للإله أمون.

أما في معبد الأقصر في مصر، فصورة على الجدار تمثل حصار الفرعون

رعمسيس الثاني للحثيين في مدينة قادش، ويظهر في الصورة الناتئة حصن قادش داخل مياه نهر العاصي، وفرسان وخيول وجيوش مصرية وحثية. وكانت القلعة الحثية تقع وسط بحيرة قادش التي أظهرتها الصورة. وكانت تشكل للحثيين موقعاً حصيناً.

أما في معبد الكرنك، فصورة تعود إلى عهد الفرعون ستّي الأول تمثل حصار الجيش المصري لقادش.

المصاهرة المصرية ـ الحثية

وتوطّد الإخاء إثر المعاهدة بين المصريين والحثيين، ممّا دفع الفرعون رعمسيس الثاني إلى اتخاذ ابنة ملك الحثيين زوجة له. وقد سافر الملك الحثي إلى مصر، وأتى برفقة الفرعون إلى جاسان ثم إلى تاب، حيث أقيم نصب، يظهر فيه رعمسيس جالساً فيما حموه وزوجته يؤديان له التحية.

وأدّى هذا الوفاق إلى حصول تبادل ثقافي بين الشعبين حيث أدخل المصريون الكثير من التعابير السريانية إلى لغتهم، كمن يطعّم اليوم لغته بكلمات من لغة أجنبية، كما نقلوا عبادة بعض آلهة الحثيين، وعلى رأسهم الإله سوتخ، الذي جدّد رعمسيس بناء هيكله في تانيس.

وحكم رعمسيس الثاني ٦٧ سنة، خلفه بعده ابنه منفتاح، وهو الفرعون الذي خرج في عهده بنو إسرائيل من مصر إلى «أرض الميعاد». وكانت علاقات منفتاح مع الحثيين جيّدة، ولم يسجّل التاريخ أية معارك بين الطرفين، بل سجّل على العكس أن منفتاح أرسل إلى الحثيين معونات غذائية عندما اجتاحت بلاد هؤلاء مجاعة.

رعمسيس الثالث

وبعد فترة قرن من السلام، تجدّدت الحروب المصرية ـ الحثية في عهد الفرعون رعمسيس الثالث من الدولة العشرين، الذي حارب الحثيين في السنة

الثامنة من ملكه، ودخلت جيوشه كيليكيا وكركميش وأرواد، ثم أسر ملك الحثيين.

وهكذا تقلّصت دولة الحثيين شيئاً فشيئاً صوب الشمال، من حيث انطلقوا أساساً في توسعهم، وحلّت محلهم دولة الآراميين.

نهاية الحكمين المصري والحثّي في بلاد كنعان

لم تؤدِ الحملات التي قام بها الفرعون ستّي الأول ثم خليفته الفرعون رعمسيس الثاني إلى إعادة مجد الامبراطورية المصرية. فقد تضافرت عوامل عدة أدّت إلى اضمحلال هذه الامبراطورية وزوال نفوذها تدريجاً عن بلاد كنعان.

ومن أهم العوامل التي أدّت إلى ذلك أن الفراعنة الذين خلفوا رعمسيس الثاني لم يهتموا أبداً باستعادة سيطرتهم على بلاد كنعان وبالمحافظة على نفوذهم فيها. وهكذا بدأ الحكم المصري يضعف إلى أن زال نهائياً، خصوصاً مع قدوم شعوب جديدة إلى المنطقة، قضت أيضاً على الحكم الحثي.

أمّا الشعوب التي أتت إلى بلاد كنعان في تلك الفترة، منهم: الآراميون والعبرانيون والفلسطينيون. وقد توطّن الآراميّون، وهم شعب ساميّ الداخل السوري، واتخذوا من مدينة دمشق عاصمة لهم، فيما اجتاح العبرانيون البلاد وتوطّنوا الجنوب. وفي الوقت عينه قدمت إلى المنطقة قبائل الفلسطو، وهم شعب غير سامي، واجتاحت شاطىء لبنان، حتى مدينة حيفا في فلسطين. ومنذ ذلك التاريخ دارت المعارك والحروب بين الفلسطينيين والعبرانيين.

ويروى في أحد النقوش للدلالة على ضعف الحكم المصري في لبنان أن مبعوثاً للفرعون المصري قدم إلى لبنان للإتيان بخشب الأرز لبناء مركبة للإله المصري أمون. وحاول طلبَ ذلك من أمير جبيل ودلالةً على اللامبالاة التي قابل بها أمير جبيل ذلك المبعوث، أنه اضطره إلى الانتظار ١٩ يوماً قبل أن يسمح بمقابلته. وهذا أمر لم يكن يحدث سابقاً، حيث كانت آيات المدح والتبجيل والخضوع لا تنتهي إكراماً للفراعنة المصريين.

ورفض أمير جبيل مقابلة المبعوث المصري عدة مرات، قبل أن يقبل بذلك. ولم يرضَ بتسليمه الخشب إلاّ بعدما دفع له ثمنه من المال وورق البردي.

الفصل الثالث

توازن قوى
وفترة استقلال

الآراميون

الشعب الآرامي هو شعب سامي الأصل قدم إلى بلاد سوريا في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م. وتوطن في الداخل السوري وفي بلاد العراق القديمة، واتخذ من دمشق عاصمة له.

واختلط هذا الشعب السامي القادم حديثاً إلى المنطقة بالشعوب الحثية والحورية والأمورية التي سبقته إلى استيطان المنطقة، فحصل تبادل ثقافي وحضاري بين كل هذه الشعوب. فاكتسب الآراميون حضارة الشعوب التي سبقته، فيما سيطرت اللغة الآرامية على لهجات السكان.

وحلّت هذه اللغة تدريجاً محلّ اللغة الكنعانية، وانتشرت بفضل التوسّع التجاري للآراميين. وأصبحت اللغة الآرامية هي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح، وقد ظلّت شائعة حتى حلّت محلها اللغة العربية مع الفتح العربي.

واقتحم الآراميون مدينة حماه في سوريا وأخضعوها وسكنوا ضفاف نهر العاصي.

قبائل الفلسطو والعبرانيون

كانت المدن الكنعانية قد خرجت لتوّها من الغزوات المصرية والحثية والأمورية، وكان سكانها قد أصيبوا بالفقر والدمار، بعدما خربت بيوتهم وسرقت أرزاقهم، وخروا تحت فداحة الجزية، عندما جاءها شعبان: الأول فلسطيني من البحر والثاني عبراني من البر، فلم يتسنّ لها أن تنفض عنها الغبار، ولم تتمكن لضعفها وتفتتها من المقاومة.

وهاجرت قبائل الفلسطو في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد من آسية الصغرى وحوض بحر إيجة، في إطار موجات الهجرة التي حصلت في تلك الفترة من هذه المناطق، وانتقل الشعب الفلسطيني، وهو شعب ينتمي إلى العرق الهندو - أوروبي، إلى شواطىء فينيقيا عبر البحر فسمّي «شعب البحر».

وهاجم هذا الشعب المدن الفينيقية الساحلية، ودخل أوغاريت التي تشكل الحدود الشمالية لفينيقيا فخربها حوالي العام ١١٩١ ق. م. ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

ثم توجهت هذه القبائل الآتية من البحر صوب مصر في الجنوب، لكن جيوش الفرعون رعمسيس الثاني تمكنت من صدّ هؤلاء وإعادتهم على أعقابهم. فما كان من الفلسطينيين إلاّ توجيه هجماتهم صوب الساحل، واستقروا ما بين مدينتي حيفا ويافا، حيث أقاموا بعد زمن إمارة قوية أخذت بالتوسع شرقاً، طاردة الكنعانيين ليحلّ محلهم الشعب الفلسطيني.

وما ساعد الفلسطينيين في غزواتهم وانتصاراتهم هو السلاح الذي كانوا يمتلكونه، أي الحديد الذي استُعمل للمرة الأولى في صناعة السلاح في حين كانت الأسلحة قبل ذلك تصنع من معدن البرونز، فيما كان الحديد بعد معدناً ثميناً

يستعمل فقط للزينة.

وقد كان إدخال الحديد في صناعة الأسلحة سرّ المهنة للفلسطينيين، لكن هذا السر كشفه الفينيقيون سريعاً، وبدأوا باستخدام هذا المعدن القوي بدلاً من البرونز. ويمكن القول إن الفضل يعود إلى الفلسطينيين في إدخال معدن الحديد بقوة في الصناعة إلى بلاد كنعان، فكان لهذا الأمر تأثير كبير على تطوير الحياة الاقتصادية والعسكرية في البلاد.

وفي الوقت عينه تقريباً، قدمت شعوب مهاجرة عبرانية وصلت إلى ساحل كنعان عن طريقين: طريق مصر بقيادة النبي موسى، وطريق الشمال بقيادة النبي إبراهيم، كما يرد في الأسفار القديمة.

وقام هذا الشعب السامي إما بطرد الكنعانيين أو بالامتزاج بهم، ممّا أدّى إلى اضمحلال واختفاء الشعب الكنعاني تدريجاً وذوبانه أحياناً في هذه الشعوب الجديدة القادمة إلى المنطقة.

وحمل العبرانيون معهم لغتهم التي انتشرت إلى جانب اللغة الكنعانية التي اختفت لاحقاً لتحلّ محلّها اللغة الأرامية. ونشر الشعب العبراني عبادة الأله الواحد في المنطقة، وسمي إلههم «يهوه»، ووضعوا كتاب التوراة الشهير.

فترة استقلال وازدهار

كان المصريون والحثيون قد زالوا نهائياً من منطقة فينيقيا، أو اضمحلّ تأثيرهم كثيراً، وسيطر الآراميون على الداخل السوري، ولم يصلوا بالتالي إلى جبل لبنان الغربي والسواحل. أمّا الفلسطينيون والعبرانيون فقد تمكنوا وتوسعوا في جنوب بلاد كنعان. ومن الطبيعي أن تضعف الأطراف نتيجة الغزوات والحروب. وهكذا، فقد تلاشى جنوب كنعان وكذلك الشمال في رأس شمرا، وذاب من ذاب في الشعوب الجديدة، ولم يبق مستقلاً ومميّزاً وقوياً إلاّ لبنان أو الساحل الفينيقي الممتدّ في الوسط مع ما يقابله من سلسلة جبال لبنان الغربية.

واستفاد الفينيقيون من هذه الخريطة السياسية التي رسمتها الأحداث لينعموا بفترة ثلاث مئة سنة من الاستقلال (١٢٠٠ ـ ٩٠٠ ق.م.)، وتكوّن في هذه الفترة نظام المدن الدول التي كان لها نظام حكم ملكي جمهوري.

وكانت هذه القرون الثلاثة مرحلة مهمة من تاريخ لبنان الذي عرف الازدهار والنموّ في المجالين السياسي والتجاري والاقتصادي.

ولكن، في مقابل هذا الازدهار، عرفت المدن الفينيقية عزلة سياسية عن محيطها في الشمال والجنوب، لأن الشعوب في الشمال والجنوب كانت دخلت البلاد عنوة وحلّت محلّ الكنعانيين، كما كانت المدن الفينيقية منعزلة الواحدة عن الأخرى، وسط التنافس القائم في ما بينها.

الفصل الرابع

العصر الأشوري ـ البابلي

الشعوب الأشورية ـ البابلية هي شعوب غير سامية توطّنت العراق القديم أو بلاد ما بين النهرين، وهي وريثة الحضارة السومرية العريقة التي سيطرت على المنطقة في الألف الثالث قبل الميلاد، والتي تركت للبشرية إرثاً مهماً هو الكتابة المسمارية.

وفي الفترة التي نما فيها الحكم الأشوري في بلاد ما بين النهرين وبلغ أوج قوته، كان مرّ على فترة استقلال لبنان ثلاثة قرون تقريباً، وكان النفوذان المصري والحثّي قد تقلّصا واختفيا في شكل نهائي. وفي هذه الفترة برزت المطامع لدى الملوك الأشوريين بتوسيع منطقة حكمهم، ووجّهوا أنظارهم، كما أسلافهم، إلى ساحل فينيقيا، الموقعِ المميز على طرق التجارة البرية والبحريّة.

الغزوات الأولى

هناك كتابات قديمة تدلّ على أن الشعوب البابلية حاولت، منذ إنشاء الدولة البابلية، شنّ حملات على فينيقيا. ففي نقوش تركها سرجون الأكادي (حوالي ٢٢٥٠ ق.م.)، يقول: إنه ملك «من البحر الأعلى إلى البحر الأدنى»، ويسمّي من ضمن ما ملكه «غابات الأرز وجبال الفضة». وتدلّ غابات الأرز طبعاً إلى جبال لبنان، فيما يُعتقد أن جبال الفضة ترمز إلى جبال الأمانوس في تركيا.

وفي نقوش أخرى تركها الملك نارام سن (حوالي ٢١٧٠ ق.م.)، وهو خليفة سرجون الأكاديّ أنه سيطر على منطقة واسعة جداً، بما فيها «غابات الأرز».

أما في العام ١٠٩٤ ق.م.، فقام الملك تغلت فلاصّر الأول بحملة انطلقت من ضفاف الفرات إلى شواطىء فينيقيا. وتمكن من الوصول إلى جزيرة أرواد واحتلالها. ويقول هذا الملك في كتاباته أنه قام برحلة بحرية من أرواد إلى مدينة سميرا قرب صيدا، وأن مدينتي جبيل وصيدا قدّمتا إليه الجزية.

لكن هذه الحملة لم تدم طويلاً، وكان هذا الاحتلال احتلالاً وقتياً قصير الأمد، ما لبث أن زال.

الحملات الأشورية ـ البابلية الكبرى

كانت كل الحملات العسكرية التي تكلمنا عنها إمّا حملات مبالغ في الحديث عنها في النقوش والكتابات القديمة أو حملات وقتية لم تعمّر ولم تترك أثراً. ولكن الحملات العسكرية الكبيرة لم تبدأ بالفعل إلاّ في عهد الملك أشور ناصربال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م.).

وبلغت أشور في عهد هذا الملك القوي مبلغاً كبيراً من الازدهار والتقدم والقوة العسكرية، وأرادت بسط سيطرتها على البلدان المجاورة معتمدة على أسلحتها وجيشها الفتي.

وتميّز الجيش الأشوري بأسلحته المستحدثة التي خدمته كثيراً في حروبه وفي دكّ القلاع والأسوار. ومن هذه الأسلحة آلات للحصار كالسلالم لتسلّق الأسوار والمدكّات لدكّ الجدران والقلاع. كما أتقن هذا الجيش فنّ ثقب أساسات الأبنية والقلاع. وكل هذا ساعد الأشوريين في احتلال المدن الفينيقية، وتحديداً في فتح مدينة صور بعد مقاومة باسلة.

وجمع أشور ناصربال جيشه منطلقاً من العراق سالكاً الطريق إلى سوريا، ومن شمالها على طول الخط الساحلي جنوباً إلى فينيقيا. وعندما وصل هذا الجيش إلى الساحل الفينيقي لم يلقَ مقاومة تذكر واستسلمت له المدن الفينيقية الواحدة تلو الأخرى على مضض، وقبلت بدفع الجزية للفاتح الجديد. وكانت الجزية عبارة عن فضة وقصدير وآنية وثياب مزركشة وقدور وأخشاب الأبنوس والأرز وأنياب بقر البحر.

وفي متحف بريطانيا تمثال لأشور ناصربال، على صدره كتابة، مفادها أن هذا الملك قد ملك البلاد من ضفة دجلة إلى لبنان.

ويروي نقش أشوري تاريخ غزوات هذا الملك، ويقول: إنه عبر نهر دجلة

في اتجاه مدينة
كركميش التي كانت
في تلك الأثناء عاصمة
للحثيين بعد قادش،
وعبر أيضاً نهر
الفرات، وعندما وصل
إلى كركميش فرض
على ملك الحثيين
سنغار جزية ثمينة من
الفضة والذهب
والنحاس والحديد
والقصدير. كما فرض
عليه جزية هي أثاث
من أبنوس وخشب
السنديان، ومئتا امرأة
جميلة وأقمشة
ومركبات مرصّعة
وتماثيل ذهبية وأدوات
حربية.

ويتابع أشور
ناصربال أنه بعدما
أخضع كركميش، تابع
غزوته صوب لبنان،
فاصطدم بأحد الأمراء
الحثيين، فأخضعه
وأخـذ مـنـه جـزيـة



نصب لملكارت من ملك دمشق بن هدد

وأملاكاً، ثم تابع سيره صوب العاصي، حيث كانت له حروب صغيرة، حتى وصل إلى لبنان، واحتلّ الجبل بكامله مع سهل البقاع.

وأخذ أشور ناصربال، كما يروي في النقش الأشوري الجزية من ملوك صور وصيدا وجبيل وأرواد ذهباً ونحاساً وقماشاً وخشباً...

معركة قرقر

هذه المعركة وقعت في وادي العاصي في العام ٨٥٥ ق.م. بين جيوش شلمناصّر الثالث ابن أشور ناصربال وخليفته من جهة، وتحالف الأمراء السوريين والفينيقيين من جهة ثانية. فقد تحالف اثنا عشر ملكاً، وعلى رأسهم ملك دمشق بن هدد الآرامي. وبين هؤلاء الملك الإسرائيلي آحاب وأمراء من صور والمدن الفينيقية. وبلغ عدد جيوش هذا التحالف ٦٠ ألفاً؛ تحالفوا كلّهم ضد الجيش الأشوري القادم من الشمال ودارت بينهم معركة قرقر الشهيرة.

وحقّق الملك الأشوري نصراً جزئياً في هذه المعركة العنيفة، وسيطر على المنطقة سيطرة غير كاملة. وهذا ما أجبره على شنّ حملة أخرى في العام ٨٤٢ ق.م.. حيث استسلمت له كل المدن الفينيقية. وقد دارت معركة بين الجيوش الأشورية وجيوش الملك حزائيل الآرامي عند مداخل جبل لبنان. لكن الملك الأشوري تمكن من تحقيق النصر، بعدما قطع بساتين غوطة دمشق، وزحف صوب حوران ثم وصل إلى جبل الكرمل، حيث أقام له تمثالاً. كما حفر الملك شلمناصّرالثالث الأشوري نقشاً له عند صخرة نهر الكلب.

حملات أشورية متجددة

بعد الحملات الأخيرة التي شنّها الملك الأشوري شلمناصّر الثالث والتي فرضت بسط سلطة المملكة الأشورية على فينيقيا، لم تحصل لمدة قرن من الزمن حملات جديدة على المنطقة. وهذا الوضع أضعف النفوذ الأشوري بعض الشيء.

ولكن، عندما استلم الحكم الأشوري الملك تغلت بلاصّر الثالث، ثم خليفته شلمناصّر الخامس (٧٢٧ ـ ٧٢٢)، بدأت حملات متجددة على فينيقيا بهدف إخضاعها النهائي والتام للهيمنة الأشورية.

وهكذا هاجمت الجيوش الأشورية المدن الفينيقية فأخضعتها في سهولة نسبية، في حين استسلم بعضها فوراً وقدم الجزية للمحتلّ اتقاءً لشرّه، مثل أرواد وجبيل وحتى صور البرية. واعتقدت هذه المدن أن تقديم الجزية للمحتل يمنعه من التدخّل في شؤونها الداخلية ومن الإضرار بتجارتها.

واستسلمت صيدا للأشوريين العام ٧٠١ ق.م.، ولم يكد يمر خمسة وعشرون عاماً، حتى غزاها مجدداً الملك الأشوري أسرحدون، وخرّبها من أساسها وهدم بيوتها وأسوارها، وألقى القبض على ملكها عبد ملكارت وقتله. وبنى في صيدا قلعة أشورية نصّب عليها حاكماً أشورياً، ممّا اضطر أهلها إلى الهرب إلى المدن المجاورة خوفاً من الأشوريين.

واستسلمت المدن الفينيقية الأخرى عندما رأت ما حلّ بصيدا، وسلّم ملك أرواد ياكين ـ إيل المدينة إلى أسرحدون. وأعطاه أيضاً ابنته، ثم عقد معاهدة خضوع واستسلام تام.

ومن المدن الفينيقية إلى الداخل، حيث خضعت في العام ٧٣٢ ق.م. مدينة دمشق، ثم مدينة السامرة في فلسطين في العام ٧٢٢ ق.م.، والتي كانت عاصمة

المملكة اليهودية الشمالية في ذلك العصر.

وهكذا استطاع الأشوريون إخضاع كل المدن الفينيقية لسلطانهم، وتمكنوا أيضاً من إخضاع سوريا وفلسطين. فاستقرّ ملكهم واتسع نطاق سيطرتهم، فمدّوا سلطانهم على المنطقة التي يلتقي فيها الغرب والشرق، المنطقة الأكثر استراتيجية للتجارة.

وبعد ذلك وجّه الأشوريون اهتمامهم صوب مصر ليخضعوا هذه الدولة التي تنافسهم في النفوذ على المنطقة والتي تحالفت مرّات مع المدن الفينيقية ضدّهم، وتحديداً مع صور.

وقام الملك الأشوري أسرحدون بمهاجمة مصر السفلى وأخضعها. وأقام تمجيداً لانتصاره هذا نقشاً على صخرة نهر الكلب.

أمّا الملك الأشوري أشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦) فاجتاح مصر العليا، وتمكّن من إخضاعها. وهكذا بلغت المملكة الامبراطورية أقصى حدود توسعها من مصر إلى دمشق مروراً بالساحل الفينيقي من فلسطين إلى أرواد.

حملات أشور ناصربال الثاني

أوّل احتكاك بين صور والأشوريين القادمين الجدد إلى المنطقة كان مع شنّ أشور ناصربال الثاني سنة ٨٧٦ هجومه الأول على فينيقيا، آتياً من وراء الجبال، شمالاً على طول الشاطىء إلى الجنوب.

في هذه الأثناء كان إيتو بعل (٨٨٧ ـ ٨٥٦) هو ملك صور. وكان قد وطّد ملكه بعد انتهاء الاحتلالات والتنعّم بفترة استقلال، وسمّى نفسه ملكاً على عدد من المدن المحيطة بمدينته، ووسّع المستعمرات وبنى مستعمرات جديدة. فقام ببناء مدينة البترون في الشمال كما أنشأ مستعمرة أوزا في ليبيا.

وقام إيتو بعل بتعزيز ملكه ونفوذه، من خلال توطيد علاقاته السياسية بالجوار، ولذلك فإنه زوّج ابنته إيزابل بملك إسرائيل أحاب بن عمري، ممّا أمن له علاقة جيدة مع الإسرائيليين، فيما عملت ابنته على فرض نفوذ صور في بلاد زوجها وعلى نشر عبادة آلهة مدينتها، واستعملت أحياناً لذلك القوة والقسوة.

ولمّا أتى أشور ناصربال فاتحاً، استسلمت له معظم المدن الفينيقية، وكذلك فعلت صور، وقدّمت له الجزية، تجنباً للمعارك والدماء، وحفاظاً على تجارتها الزاهرة، وكانت الجزية عبارة عن ذهب وفضة وأقمشة ومعادن إضافة إلى الخشب طبعاً.

هذا الوضع السلمي سمح لصور بأن تستمر في توسعها وفرض قوتها حتى على الإسرائيليّين على رغم علاقة المصاهرة بين ملكي الإسرائيليين والصوريِّين.

وظلّ الصوريّون يدفعون الجزية لملوك أشور، طمعاً في الحفاظ على نوع من الاستقلال الداخلي. وعندما هاجم الملك الأشوري شلمناصّر الثالث حلف الأمراء السوريين والفينيقيين، ظلّت صور محايدة ولم تنضمّ إلى هذا الحلف، وهذا ما منع

الجيوش الأشورية من أن تطأ أرض صور، وجعل المدينة تحافظ على استقلال معيّن وعلى قدر كافٍ من الازدهار. وكانت صور تحكم في تلك الفترة من الملك متّان (٨٤٩ ـ ٨٢١).

ويتمكن ملوك صور الذين توالوا على حكمها من الحفاظ على استقلال صور، وهذا ما فعله أيضاً الملك أحيرام الثاني، عندما سارع إلى تقديم الجزية والهدايا إلى الفاتح الأشوري الجديد تغلت بلاصّر الرابع الذي هاجم المدن الفينيقية وأسقطها، وأوّلها مدينة أرواد.

مقاومة صور

عرفت صور عبر تاريخها مواقف شجاعة ومقاومة باسلة في بعض المراحل، وكان أول هذه المواقف في مواجهة الغزو الأشوري.

ولّما كانت صور زعيمة المدن الفينيقية في تلك الفترة، وكانت المدن الأخرى تحسدها على موقعها هذا، وترغب في التخلص من سيطرتها السياسية والتجارية، قامت مدن صيدا وصور البرية وعكا بالتحالف مع الغازي الأشوري، بعدما استسلمت له، ضدّ صور البحرية، ووضعت في تصرّفه أسطولاً مؤلفاً من ٨٠٠ نوتي، قام بمحاصرة صور.

وصمدت صور طويلاً أمام الحصار المحكم عليها، فقد كانت مؤنها تكفيها سنوات والمياه المخزونة تكفي سكانها خمس سنوات. . . وهكذا استمر الحصار إلى أن انتهى بموت الملك الأشوري شلمناصّر في العام ٧٢٢ ق.م. ، وحلّ محلّه سرجون الثاني الأشوري.

وكان البطل الصوري الذي صمد أمام هذا الحصار هو الملك إيلو ـ إيلي، الذي عقد مع الأشوريين معاهدة شريفة وحاول استعادة قبرص التي احتلّها الأشوريون، وقد فرض هيبته على المدن الفينيقية التي كانت صور تتزعمها.

وبعد سرجون الثاني، تولّى الحكم الملك سنحاريب وجوبه بثورة ضدّ الحكم الأشوري تزعّمتها صور المدعومة من مصر، إلاّ أنه قام بحملة مضادة على الثوّار لتأديبهم وإعادة إخضاعهم. فخرّب مملكة يهوذا في فلسطين، ثم طارد ملك صور إيلو ـ إيلي، الذي هرب في اتجاه قبرص، ثم دخل وأحرق منزل ملكها وأسر من أمكنه أسره، وعيَّن ملك صيدا الموالي له أتو ـ بعل محلّ إيلو ـ إيلي زعيماً على المدن الفينيقية.

وأراد سنحاريب من غزوته هذه تلقين صور درساً، بعدما استعادت هذه المدينة سيادتها على جزيرة قبرص التي كان استمالها الأشوريون، وبعدما رفضت الخضوع لسلطته. فهاجمها سنحاريب مدعوماً بسفن وبحّارة من المدن الفينيقية المناوئة لصور. إلاّ أن السفن الصورية الاثنتي عشرة أغرقت السفن العدوة، ممّا اضطر الملك الأشوري إلى الانسحاب، مبقياً على حصاره للمدينة، الذي انتهى بهرب إيلو - إيلي.

وكان الصراع قوياً بين الأشوريين والصوريين على قبرص؛ فبالنسبة إلى صور كانت قبرص تعني قاعدة بحرية قوية تكفل سيطرة صور وسطوتها على البحر وتؤمن لها قاعدة خلفية داخل البحر. أما بالنسبة إلى الأشوريين فإن الاستيلاء على قبرص هو الوسيلة الأسهل للقضاء على صور بعد إضعافها ومحاصرتها.

ولمّا لم يتمكن سنحاريب من إخضاع صور رغم الهجمات التي شنّها، تركها محاصرة من قبل حامية بحرية ووجّه اهتمامه جنوباً صوب عسقلان في محاولة للقضاء على التحالف المصري - الفلسطيني.

وعندما تولّى أسرحدون الحكم في أشور، كان ملك صور آنذاك هو الملك بعل، الذي سارع إلى تقديم الطاعة للملك الأشوري الجديد، إثر إخماد الأشوريين ثورة في صيدون أدّت إلى تدمير المدينة. وبدأت العلاقات جيّدة بين أسرحدون وبعل الذي مُنح قسماً من المنطقة الصيدونية، وعقد الرجلان معاهدة تنظم العلاقات بينهما. وتنصّ المعاهدة على تشكيل مجلس شيوخ ذي صلاحيات واسعة في صور. يكون فيه ممثلون عن أسرحدون، ممّا يعني تأثيراً معيناً في سياسة صور، كما تحدّد المعاهدة شروطاً لرسو السفن الصورية في شواطىء أشور، والمناطق التي يُسمح فيها لبعل بمدّ سلطته. وكانت هذه المناطق تمتد من جبيل في الشمال إلى عكا جنوباً، إضافة إلى بعض العمق في الجبل اللبناني.

وبعد فترة من الوفاق الذي أُرغم عليه ملك صور، استغلّ هذا الملك مجدداً تقرّبه من فرعون مصر آنذاك ترهافا الحبشيّ الأصل، ليثور مجدداً على الأشوريين. وتجدّدت الثورة الصورية، لكن الأشوريين قمعوا هذه الثورة سريعاً في مهدها، إلا

أنهم لم يتمكنوا من القضاء على صور، كما أنهم لم يهاجموا جيوش الفرعون المصري.

وقام الملك الأشوري بالزحف على صور في العام ٦٧١ ق.م. إلاّ أنه لم يتمكن من دخول المدينة، إذ لم يكن يملك أسطولاً بحرياً مهماً، كما أن الوقت لم يسمح له بحصار للمدينة يدوم سنوات.

وهكذا اكتفى أسرحدون بإبقاء حاميته حول صور لمنعها من التحرك ومنع المواد الغذائية عنها.

وترك أسرحدون نقشاً على مسلّة الزنجرلي، يظهر فيه الملك الأشوري ممسكاً بيديه ملك صور وفرعون مصر، وقد رُبطا بحبل في شفتيهما. ولكن هذا النقش لم يكن تسجيلاً لحدث تاريخي، إنما تجسيداً على الحجر لأمنيات الملك أسرحدون التي لم تتحقّق.

وفي عهد أشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٥٦) ابن أسرحدون، ثارت صور مرّات عدّة، فقمع ثوراتها أوّلاً بالهدوء، ولكنها لمّا لم تذعن له، قام بمحاصرتها وقطع الطرق البرية والبحرية عليها. ويقول أشور بانيبال في كتاباته أن ملك صور قدم إليه ابنته وبنات إخوته مع مهورهن فقبلهن، كما قدّم إليه ابنه فأرجعه إليه.

إلاّ أن أشور بانيبال شنّ من جديد حملة أخرى على المدن الفينيقية في العام ٦٦٤ ق.م. بعدها استسلمت إلى الأشوريين للمرة الأخيرة بعد فترات من المقاومة والثورات.

وتُسجل في نهاية عهد أشور بانيبال قيام صور البرية بالتحالف مع عكا بالثورة على الحكم الأشوري. إلاّ أن هذه الثورة أخمدت في سرعة وعنف.

الأثر الحضاري الأشوري

أتى الأشوريون إلى فينيقيا حاملين معهم حضارة سومرية عريقة، تركوا أثراً لها في الأماكن التي حلّوا فيها، قبل أن ينتهي عصر احتلالهم لبلاد كنعان.

وأبرز حدث حضاري خلّفوه في المنطقة هو نقل الكتابة المسمارية من بابل إلى فينيقيا. واعتمد الملوك الفينيقيون هذه الكتابة في مراسلاتهم، قبل وضع حروف الأبجدية، وأصبحت اللغة الأكاديّة لغة معتمدة في هذه الكتابات والمراسلات.

كما ترك الأشوريون والبابليون أثراً في عبادتهم وآلهتهم في عبادة الفينيقيين. فاسم تموز وهو الإلٰه الفينيقي ذات الأهمية الكبرى، هو اسم سومري، وكذلك فإن أساطير الخلق والطوفان المنصوص عنها في كتاب التوراة تعود جذورها إلى أساطير سومريّة قديمة.

الفصل الخامس

الكلدانيون

بعد انتهاء السيطرة الأشورية، ظهرت في العراق القديم قوة عسكرية جديدة، هم الكلدانيون، الذين ورثوا المملكة الأشورية وعاصمتها نينوى بعد تخريبها في العام ٦١٢ ق.م.

ونشأت المملكة الكلدانية بزعامة نابو فلاصّر (٦٢٥ ـ ٦٠٥) الذي انتصر على الأشوريين وانتزع منهم مملكتهم.

في تلك الفترة كان يحكم مصر الفرعون نخو، الذي حاول الاستفادة من الفترة الفاصلة بين انهيار المملكة الأشورية وقيام المملكة الكلدانية، وما تكون عليه هذه المراحل عادة من ضعف لانشغال الحكام بانتقال الحكم، من أجل استعادة السيطرة المصرية على ساحل فينيقيا.

وكانت المدن الفينيقية في شكل عام تتأرجح في الموالاة بين المصريين والأشوريين، مع أنها كانت تميل أكثر إلى مصر.

واستغلّ الفرعون المصري هذا التعاطف الضمني، فوجَّه جيشاً كبيراً لمهاجمة الكلدانيين، وكان يلاقي النصر تلو الآخر، حتى وصل إلى مدينة كركميش الواقعة على نهر الفرات. وهنا تواجه الجيش المصري في معركة قاسية مع الكلدانيين بقيادة نبوخذ نصر ابن نابو فلاصّر، الذي هزم المصريين شر هزيمة في العام ٦٠٥ ق.م.

ولم يكتفِ نبوخذ نصّر بهذا الانتصار، بل قرّر متابعة حملاته على المدن الفينيقية لإتمام السيطرة الكاملة عليها لأنه اعتبر أن السيطرة التامّة على الساحل الفينيقي وموالاة المدن الفينيقية له هما شرطان أساسيان لمواصلة حملته صوب مصر بهدف إخضاعها. وكان يرى أن بقاء المدن الفينيقية خارج سيطرته يجعل حربه ضدّ المصريين غير مضمونة النتائج على الإطلاق.

وبدأ نبوخذ نصّر حربه هذه باحتلال أورشليم التي سقطت في العام ٥٩٧، فيما استسلمت مدن فينيقية أخرى راضخة للأمر الواقع، على أمل أن يزول هذا الاحتلال الجديد كما زال سواه قبله.

مقاومة صور الثانية: ضد الكلدانيين

إزاء خضوع بعض المدن الفينيقية أو استسلامها، رفضت مدن أخرى الخضوع في سهولة للغازي الكلداني، وعلى رأس هذه المدن صور وصيدا، اللتان حاولتا الاستعانة بحلفٍ مع مصر ومع مدن أخرى ثائرة على نبوخذ نصّر، مثل أدوم ومؤاب وعمون (هذه المدن تقع شرق الأردن)، وعقدت هذه المدن تحالفاً عسكرياً في ما بينها لمواجهة الجيش الكلداني.

وفي المقابل، جهّز نبوخذ نصّر جيشه، واتخذ قاعدة له في مدينة ربلة السورية القريبة من مصر، وشنّ هجوماً معاكساً على جيوش هذا التحالف، فحقّق النصر، وأخضع المدن الفينيقية ما عدا صور كما استولى على مملكة يهوذا في إسرائيل، هذه المملكة التي زالت من الوجود.

وحاول الجيش المصري بقيادة الفرعون خفرع، خليفة نخو أن يصدّ الهجوم الكلداني إلا أنه لم يفلح في ذلك وعاد على أعقابه.

وقد جاءت نبوءة أرميا النبي في كتاب التوراة واضحة حول فشل هذا الحلف بدعم مصري، وهو يقول عن لسان يهوه: «... والآن قد دفعتُ لك هذه الأراضي ليد نبوخذ نصّر عبدِي». أما أشعيا النبي فقال عن مصر والتحالف معها «... إنك قد اتّكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر».

سقوط صور البرية

بعد كل هذه الانتصارات بقيت صور وحدَها عاصية، فوجّه نبوخذ نصّر اهتمامه إليها لإخضاعها لتتمّ له السيطرة على كامل الساحل الفينيقي للمرّة الأخيرة.

ويبدأ نبوخذ نصّر هجومه على صور بالسيطرة أوّلاً على صور البرية وكل

المحيط، بحيث تبقى أمامه فقط صور البحرية سهلة المنال، كما اعتقد، فيحاصرها. ولكن ذلك لم يتمّ كما أمل نبوخذ نصّر.

أمّا سقوط صور البرية فجاءت نبوءتها لدى النبي حزقيال حين قال: «ها أنذا أجلب على صور نبوخذ نصَّر ملك بابل من الشمال ملك الملوك بخيل ومركبات وفرسان وجمع وشعب كثير. فيقتل بناتك بالسيف ويبني عليك معاقل ويبني عليك برجاً ويقيم عليك مترسة ويرفع عليك ترساً، ويجعل مجانق على أسوارك ويهدم أبراجك بأدوات حربه، ولكثرة خيله يغطيك غبارها. من صوت الفرسان والعجلات والمركبات تتزلزل أسوارك عند دخوله أبوابك كما تُدخل مدينة مثغورة بحوافر خيله يدوس كل شوارعك، ويقتل شعبك بالسيف فتسقط إلى الأرض أنصاب عزك وينهبون ثروتك ويغنون تجارتك ويهدّون أسوارك ويهدمون بيوتك البهيجة، ويضعون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه، وأُبطل قول أغانيك وصوت أعوادك لن يسمع بعد» (حزقيال ٢٦/ ١٠ ـ ١٤).

محاصرة صور البحرية

بعد سقوط صور البرية، هرب العديد من سكانها إلى صور البحرية التي نجت من قبضة الكلدانيين حتى ذلك الوقت.

ويُعتقد أن نبوخذ نصّر بعدما حاصر صور البحرية، حاول دخولها عبر بناء جسر بحري بين البر والجزيرة، ولكنه لم يفلح في ذلك طوال الحصار الذي استمرّ ١٣ عاماً (٥٨٥ ـ ٥٧٢)، وهو حصار لا مثيل له في التاريخ من حيث مدّته.

ويروي المؤرخ أريانوس للدلالة على محاولة نبوخذ نصّر بناء جسر إلى صور أن الاسكندر المقدوني عندما حاصر صور وحاول بنفسه بناء جسر للوصول إلى الجزيرة وجد البحر موحلاً على مسافة لا يستهان بها، ممّا سهّل له المهمة.

وحاول نبوخذ نصّر استنباط الوسائل الممكنة لإحكام حصاره على صور، هو الذي لم يكن يملك أسطولاً بحرياً.

وكان حاكم صور في تلك الآونة الملك إيتو ـ بعل الذي اشتهر بعناده

وصلابته، وتمكّن بفضل قوته وحنكته من أن يطيل عمر الحصار ليخرج بعدها بحلّ معقول.

كيف انتهى حصار صور؟

على رغم حصار صور الذي دام ١٣ سنة، فإن هذا الحصار لم ينته بمهاجمة الكلدانيين للمدينة، إذ أن أهالي صور عرضوا على المحاصرين استسلاماً جزئياً في مقابل رفع الحصار.

ويُعتقد أن الاتفاق نصّ على التخلّي عن إيتو ـ بعل وبيته مع الاحتفاظ بالنظام الملكي والاستقلال الداخلي، من دون أن تدخل الجيوش الكلدانية إلى صور البحرية.

وأخذ الكلدانيون عدداً كبيراً من أعيان صور ووجهائها رهائن. وترك الكلدانيون تسجيلاً لهذا النصر نقشين على صخور نهر الكلب الشهيرة. ويظهر نبوخذ نصّر في النقش واقفاً أمام أشجار الأرز وهو يردُّ في يده أسداً. ويقول نبوخذ نصّر إنه خلّص شعب صور وفينيقيا من كل عدّو بتحريره من الحرب. وإنه نقل إلى المدن الفينيقية السلام والطمأنينة والسرور. ويروي أنه خاض حرباً شرسة واجتاز الصخور والوديان، وتمكن من الوصول إلى غابات الأرز.

ويبدو أن الملك نبوخذ نصّر لم يجنِ الشيء الكثير من حصاره لصور، على رغم الحصار الطويل، ونرى ذلك واضحاً في نبوءة حزقيال النبي (١٧/٢٩)، حيث يرد: «لم تكن له ولا لجيشه أجرة من صور لأجل خدمته التي خدم بها عليها، لذلك، هكذا قال السيد الرب ها أنذا أبذل أرض مصر لنبوخذ نصّر ملك بابل، فيأخذ ثروتها ويغنم غنيمتها وينهب نهبها، فتكون أجرةً لجيشه».

وبعد فكّ الحصار عن صور، تغيّرت التحالفات كلّها. ففيما كانت مصر تدعم الصوريين، انقلبوا عليها؛ بل انقلبت عليهم حين حالف الصوريون مجدداً الكلدانيين في معركتهم ضد المصريين.

وكما جاء في نبوءة حزقيال، فإنه لمّا تمكّن الكلدانيون من الشاطىء الفينيقي

وأمنوا جانب صور، وجّهوا أنظارهم صوب مصر، ليحتلّوها، وحصل ذلك بعد خمس سنوات من انتهاء الحصار حول صور البحرية.

ولحقت بصور في الواقع نتيجة هذا الحصار الطويل خسائر اقتصادية جمّة، أبرزها توقف الحركة التجارية للأسطول الصوري الذي كان أهم أسطول تجاري في ذلك العصر. وهذا الوضع أدّى إلى تراجع صور كسيدة البحار وكمدينة متفوقة سياسياً واقتصادياً، كما أدّى إلى ضعف صلات صور بمستعمراتها المنتشرة على طول الشواطىء المتوسطية.

نهاية السيطرة الكلدانية

لم تدم السيطرة الكلدانية على فينيقيا، رغم كل المعارك الشرسة التي جرت، أكثر من ثمانٍ وخمسين سنة. فبعد فكّ الحصار عن صور، ونتيجة اتفاق الحلّ الوسط الذي تمّ التوصل إليه بين الصوريين والكلدانيين، تخلّى الملك إيتو ـ بعل عن العرش، كما ذكرنا، وتسلّم مقاليد الحكم مكانه خلفه بعل، كما يرد في وثيقة لنبوخذ نصّر يصف فيها ملوك ست دول فينيقية، من بينهم ملك صور، ويقول أن هؤلاء الملوك خضعوا لسلطانه. وترجع هذه الوثيقة إلى العام ٥٧٠ ق.م. تقريباً.

ويتولى الملك بعل الحكم طيلة عشر سنوات، وينتهي حكمه بثورة على الحكم الملكي تنتقل بنتيجتها السلطة إلى قضاة يحكمون لمدة سبع سنين، وهم على التوالي: أنيبعل (حكم شهرين)، شلبس بن عبداي (أكمل السنة)، متان وجرعشترت بن عبدليم (يحكمان معاً ست سنوات من ٥٦١ إلى ٥٥٦). ويطرأ عندها تغيير على نظام الحكم فينتخب ملك، هو بلاتور ليحكم إلى جانب القاضيين.

وبعد انتهاء حكم هؤلاء الثلاثة، الملك والقاضيان، يعود أحد الأعيان الذين أخذهم الكلدانيون رهائن، ويعتقد أنه ابن الملك أتور بعل، ويتسلّم عرش صور تحت اسم الملك بعل الثاني. ويخلف هذا الملك في الحكم ملكان آخران من الأعيان الرهائن. ولا تورد النصوص التاريخية أي ذكر أو أخبار عن هذين الملكين المجهولين الاسم. ثمّ تسلّم الحكم الملك الصوري حيرام الثاني.

وفي عهد هذا الملك سيطر قورش الفارسي على مدينة بابل، مدينة الكلدانيين (٥٣٩ ـ ٥٣٨) واستولى على المملكة الكلدانية وأيضاً على المدن التي كان احتلّها الكلدانيون، وعلى رأسها المدن الفينيقية.

الفصل السادس

تحت الحكم الفارسي

فيما كان بختنصّر الفارسي يتمتع بأوسع رقعة بلغها الحكم الكلداني، كانت بلاد فارس تتهيأ لتعيش أحداثاً مهمة. فقد وصل إلى الحكم قورش الذي ما إن استقرّت له الولاية حتى اندفع خارج الحدود بحثاً عن طموحات توسعية، ويقال إن بختنصّر أصيب بالجنون في آخر أيامه، وكان يحسب نفسه ثوراً يأكل عشب الأرض ويدُبُّ على يديه ورجليه ويتشرد في البراري. ومات على هذه الحال في العام ٥٦٢ أو ٥٦١ ق.م. وخلفه ابنه أويل مردوك حكم لسنتين قبل أن يسقط ضحية مؤامرة حاكها نرغل سار سور (ومعناه الإلٰه نرغل يحفظ الملك) فقُتِل على يديه، واستولى نرغل على الحكم بعد ذلك. وبعد نحو أربع سنوات دارت معركة بينه وبين قورش الفارسي، فقتل فيها، وخلفه ابنه بلابار اسكون. وكان ذلك في العام ٦٥٥ ق.م. لكنه لم يحكم سوى أشهر قليلة وارتأى الأعيان وصول نابونيد إلى الحكم.

قورش وقمبيز

وفي خلال حكم نابونيد، اعتلى قورش عرش فارس بعدما انقلب على حميه استياج، وبدأ التطلع غرباً إلى بلاد الكلدان، حيث كانت تدور أزمات سياسية داخلية، دفعت بنابونيد إلى تسليم ولده بلشصر مقاليد الحكم. وقد استغلّ قورش هذا الوضع لفتح حرب بينه وبين الكلدان. واضطرّ نابونيد إلى أن يخرج على رأس جيشه لمنازلة عدوّه الفارسي، لكنه انهزم ووقع أسيراً في أيدي الفرس. وتابع بلشصّر المعركة، لكنه خسرها. وكانت بذلك نهاية الامبراطورية الكلدانية، وبداية الحكم الفارسي للمنطقة في العام ٥٣٧ ق.م. وبدأت للمرّة الأولى في التاريخ عملية تفاعل عميق بين الحضارات السامية التي هي حضارة المناطق المغلوبة، والحضارة الفارسية الهندو ـ أوروبية.

وخضعت المدن الفينيقية للمحتلّ الجديد من دون مقاومة تذكر. ذلك أنها كانت تحاول منذ تضعضع حكم بختنصّر نتيجة جنونه، أن تبحث عن سبيل إلى الاستقلال والتحرر من التبعية للكلدان. وكان بختنصّر نصّب على عرش صور خلفاً لإيتو ـ بعل هو بعل الذي حكم عشر سنوات انتقل الحكم بعدها إلى القضاة (ورد ذكرهم في مكان سابق من الكتاب). وفي عهد أحيران الرابع (عشرين سنة) انتقلت الولاية في الامبراطورية من الكلدان إلى الفرس. وقد توفي أحيران في العام ٥٣١ ق.م. بعدما أظهر ولاءً تاماً للمحتلين الجدد، وبقي يدفع الجزية للفرس كما سائر ملوك فينيقيا. وهذا ما فعله ولده موتون الذي كان خلفاً له.

ووافق قورش على أن تبقى الجزية التي كانت تدفعها المدن الفينيقية أيام الكلدان هي ذاتها المؤداة له. وفي أحد آثار قورش أن بين الملوك الذين قدّموا له الجزية في بابل «جميع ملوك فينيقيا». وكان قورش قد استولى على مدن فينيقيا

وقبرص وأخاف مصر التي فضّل ملوكها المسالمة لأنهم سئموا الحروب، كما أنه مال إلى اليهود وأمر بعودة المسبيّين منهم إلى فلسطين وتجديد بناء هيكل سليمان. ويقدر بعض الدارسين عدد الذين توجهوا إلى أورشليم يومذاك بنحو ٤٢ ألفاً، على رأسهم زربابل ورئيس الأحبار. وقد زوّد اليهود الصيدونيين والصوريين بالمؤن والزيوت في مقابل خشب الأرز الذي أبحروا به إلى يافا، لنقله في ما بعد إلى أورشليم لبناء الهيكل.

وبعد ثماني سنوات من بناء امبراطوريته، أي في العام ٥٢٩ ق.م. قتل قورش في معركة مع التتر في شمال بلاد فارس، فخلفه ولده قمبيز الذي تمكّن من القضاء على مثيري القلاقل في الشمال ليدرأ عنه المخاطر الخارجية، وتخلّص من شقيقه سمرديس ليطفىء نار أي ثورة داخلية محتملة. ثم انقضَّ على مصر، وساعده الفينيقيون بأسطولهم في حملته، فسحق المصريين وقتل ملكهم أحمس. وتابع المسير في الداخل المصري حتى الحبشة، لكنه مني هناك بهزيمة نكراء، عاد بعدها منهك القوى إلى الساحل الشمالي لأفريقيا.

ويقول المؤرخ أكسنغون إن أحمس كان يدرك أن قمبيز سيهاجم مصر، فأخذ يُعِد العدّة للمواجهة. وبالفعل أخذ الملك الفارسي يبحث عن الحجج الآيلة إلى تبرير الحرب، ولاحت له فكرة تقضي بأن يطلب يد ابنة الفرعون لتوقعه أنه كان سيرفض الطلب. لكن أحمس استدرك الأمر وتظاهر بالموافقة، وأرسل له نيتيتس ابنة سَلفه ابريس، الذي كان قد انقلب عليه وقتله، وادعى أنها ابنته. لكن احمس أيقن بعد فترة من زواجه بنيتيتس أنه كان مخدوعاً، وهذه الخديعة شكلت له ذريعة لمهاجمة مصر، التي كان ملكها يقف بين مأزقين: الأول هو الاعتراف بالحقيقة وبالتالي تبرير جرب قمبيز عليه، والثاني هو الإصرار على نكران الحقيقة، وهذه نقاط استغلّها قمبيز أيضاً ليطالب بحقوقه في حكم مصر، ما دام هو زوج ابنة الفرعون.

وقد شنَّ الملك الفارسي حملته على مصر، وقدَّم إليه العرب ما يحتاجه من الماء خلال عبور قوافله للصحراء العربية، كما أن المدن السورية رحّبت به باستثناء

غزة التي حاربته لأنها متحالفة مع المصريين، فهزمها. وتابع سيره إلى بلاد النيل حيث هزم ملكها أحمس الذي خلفه ولده بساماتيكوس الثاني، فحاول الانتقام لوالده لكن الحظ لم يحالفه، فوقع أسيراً في أيدي الفرس ثم جرت تصفيته.

وما أن استقرت الأمور لقمبيز في الساحل المصري ـ الليبي، حتى تطلّع إلى قرطاجة وقرّر إخضاعها لسيطرته، فوجّه إلى الفينيقيين الذين أظهروا تعاطفاً معه ودعموه في كل حملاته، وطلب منهم مساعدته بأسطولهم في حربه على قرطاجة. لكن الفينيقيين رفضوا ذلك بقوة، إذ ليس طبيعياً أن يحاربوا أبناءهم، وأفهموه أن هناك قَسَماً متبادلاً يمنعهم من محاربة أبناء قرطاجة، وأن الآلهة ستغضب منهم وتلعنهم لو فعلوا. وقد كان الموقف الفينيقي الجريء كفيلاً بدفع قمبيز إلى التخلّي عن هدفه بمهاجمة قرطاجة، لأن الأسطول الذي كان يعتمد عليه قمبيز في حملاته هو فينيقي بالدرجة الأولى، ولأنه لم يكن مناسباً إغضاب الفينيقيين الذين يقفون إلى جانبه في حروبه الكثيرة ويقدّمون إليه خدمات الأسطول.

وفيما كان قمبيز ينشط توسعياً في شمال أفريقيا، بلغه أن هناك اضطرابات داخلية في بلاد فراس قد تؤدي إلى بلبلة الحكم، فأسرع عائداً لمعالجة الوضع، ولكنه سقط في الطريق عن جواده، فأصيب بطعنة من سيفه. ولأنه كان على عجلة من أمره، اضطرّ إلى مواصلة المسير، فالتهب الجرح وقتله وهو في الطريق، في موقع يسمّى عقبتان. واختلف المؤرخون في تحديده بين قائل إنه في ناحية جبل الكرمل وآخر في جهة حماه.

وعلى الأثر تولى حكم الامبراطورية الفارسية مجوسي أطلق على نفسه اسم سمرديس بن قورش، ودام هذا الملك بضعة أشهر ليضع حداً له أحد كبار الملوك الفرس، أي داريوس الذي تولى الملك ما بين عامي ٥٢١ و٤٨٥ ق.م.

أسطول فينيقيا يحارب اليونان

ازدهرت فينيقيا في عهد فارس، ونشطت تجارتها، وتابع الأسطول الفينيقي خدمته للفرس، فساعد داريوس في افتتاح جزر البحر الأبيض المتوسط المحاذية لشاطىء آسيا الصغرى. وقسّم الملك الفارسي امبراطوريته إلى عشرين ولاية، وكانت ولايته الخامسة هي فينيقيا وسوريا وفلسطين وقبرص، وكانت صيدا عاصمتها، فبنى فيها قصراً وحديقة يكونان للوالي ويستخدمهما الملك إذا ما قرر زيارة هذه الولاية.

وكانت مهمة الوالي أن يجمع الجزية وأن ينظر في الأمور المتعلقة بالعدالة. وتقدّر الجزية المفروضة على الولاية الخامسة بـ ٣٥٠ وزنة من الفضة سنوياً. وشملت الولاية أيضاً عشائر العرب في برية سوريا وتخوم مصر، علماً أن هذه العشائر أعفيت من دفع الجزية.

وأمّا الخدمات البحرية التي قدّمها الأسطول الفينيقي لداريوس في معاركه لإخضاع الجزر اليونانية فكانت كبيرة. فقد بعث الملك الفارسي بديموسيدس على رأس مجموعة من الفرس إلى هذه الجزر في محاولة لدرس نقاط الضعف التي يمكنه من خلالها أن يشنّ حربه، فاستعان بسفينتين حربيتين فينيقيتين، كلّ واحدة منهما مجهزة بثلاث طبقات من الأسلحة والذخائر والمؤن. وعندما اندلعت الحرب في العام ٥٠٢ ق.م. نشبت حركة تمرّد في المدن الأيونية ضد الفرس بدعم من اليونان، وشملت هذه الحركة أيضاً جزيرة قبرص، وكان أهلها من اليونانيّين والفينيقيين. وإذ مال اليونانيّون إلى أبناء بلادهم محاولين الانقضاض على الحكم الفارسي، تمسّك الفينيقيون بولائهم للفرس، ولا سيما في مدينة أماثوس، وشنّ الأسطول الفينيقي حملة على الجزيرة انتهت بعد معارك عنيفة،

بتثبيت السيطرة الفارسية.

وشكّل هذا التمرُّد ذريعة لداريوس، فصعّد حربه على اليونان، وطلب من الأسطول الفينيقي أن ينزل بكل طاقته في المعركة، ففعل الفينيقيون. لكن الانتصار كان في خط اليونانيين، وعاد الجيش الفارسي مهزوماً فيما فقد الفينيقيون طليعة أسطولهم البحري عند جبل آثوس. وقد استدعى ذلك أشهراً من العمل المتواصل، بناء على إلحاح الفرس، لإعادة بناء الاسطول وتجهيزه للجولة المقبلة. ولم يستطع الفرس خلال هذه المعارك إلاّ أن يحافظوا على الجزر التي كانت تشهد حركات تمرُّد، ولم يتمكنوا من بسط سلطتهم إلى ما أبعد من ذلك.

وعاد الفينيقيون الذين استرجعوا قوتهم البحرية للاضطلاع بالدور المطلوب منهم، فجمعوا نحو ٦٠٠ سفينة للانقضاض على معقل أريستوكوراس قائد التمرد الأيوني، وهو مدينة ميلتوس. واندلعت معارك عنيفة قبالة جزيرة لاد المقابلة لميلتوس، فانتصر الفينيقيون ودخلوا المدينة وفرضوا سيطرتهم على الجزر المحاذية لها. ويقول المؤرخ هيرودوتس إن ملتيادس، بطل معركة ماراتون الشهيرة مع الفرس، كان يقاتل في مواجهة الفينيقيين. وقد تمكّن من الفرار بعد هزيمة اليونانيين وسقوط ابنه أماتيكوس في المعركة.

وصمّم اليونانيون، وعلى رأسهم ملتيادس، على الثأر من الفرس والوقوف سدّاً منيعاً في وجه تمدُّدهم إلى أوروبا. فيخوضون ضدّهم معركة شرسة جداً، استعدوا لها كل الاستعداد، ودارت في مدينة ماراتون يوم ١٢ أيلول ٤٩٠ ق.م. وكان الأثينيون هم رأس الحربة في هذه المعركة، وتمكّنوا من تحقيق انتصار باهر، ولن يحصد داريوس سوى مرارة الهزيمة التي بقي يعيشها حتى موته في العام ٤٨٥، وفي قلبه توق إلى ردّ الصاع صاعين لليونانيين.

هزيمة عند جبل آثوس

كان العرش الفارسي بموت داريوس، من حق شقيقه الأكبر ابطزان، إلاّ أن أحشويرش، ابن داريوس، كان سباقاً لتولّي سدّة المسؤولية والإمساك بزمام

المملكة. ودام حكمه من ٤٨٥ إلى ٤٦٥ ق.م. وأول ما قام به الملك الجديد هو إعادة مصر إلى بيت الطاعة، بعدما ظهرت فيها محاولات تمرّد، ثم بدأ يُعِدّ العدّة لمباشرة قتاله مع اليونان، ويقال: إن عديد الجيش الذي خصّصه لهذه الغاية بلغ المليونين. وقد دعمه الفينيقيون بأسطول قوامه نحو ١٢٠٠ سفينة من ذوات الطبقات الثلاث، إضافة إلى نحو ٣٠٠٠ سفينة تحمل خصائص أقل تطوّراً. وأبحر هذا الاسطول حتى مضيق هيلسبونت عند اسطنبول اليوم، ولاقاه المشاة بّراً، وبدأ أحشويرش بتنفيذ خطة تنقله إلى الجانب الآخر في المضيق أي الجانب اليوناني، فأوعز إلى قادة السفن بالتلاصق بحيث تشكّل جسراً تشدّ وحداته حبال من الألياف، ليستطيع الرجال عبوره. لكن أنواء بحرية عاتية ضربت هذا الجسر فانهار. وغمر الاستياء أحشويرش وعمد إلى معاقبة مهندسي الجسر بقطع رؤوسهم. وربما كان سبب انهيار الجسر استخدام المصريين لألياف ورق البردي، ذلك أن قوته لم تكن تقاس بقوة الألياف التي استخدمها الفينيقيون في هذا المجال، نتيجة خبرتهم الطويلة في عالم الملاحة.

وطلب أحشويرش تكرار المحاولة، فتمّ له ما أراد، وحرص المهندسون على متانة عملهم. ثم أمر بحفر قناة في المضيق تربط ما بين جبل آثوس واليابسة. وقد قام الفينيقيون بأداء هذه المهمة على أكمل وجه، وفق ما يؤكده المؤرخ هيرودوتس. وعلى الأثر بدأ نقل الرجال إلى الداخل اليوناني في خريف ٤٨٠ ق.م. واقتربت السفن بسرعة برهن الفينيقيون، ولا سيما الصيدونيون، خلالها عن براعة نادرة. وحقق الأسطول الفينيقي انتصارات فورية على اليونانيين. وقد كانت القوة المهاجمة لدوريسكوس عند مصب نهر ابروس تضم نحو ٣٠٠ سفينة فينيقية و٢٠٠ سفينة مصرية و١٥٠ سفينة قبرصية، وعدّد هيرودوتس القادة الفينيقيّين في المعركة وهم: تبترمنستوس بن انيسوس الصيدوني، مابن بن سيروم الصوري، مار بال بن اكبال الأروادي.

وعند وصول المهاجمين إلى موقع سلاميس، اصطدموا بالأثينيين، وكانوا مقاتلين أشداء، وجرت مواجهة بين سفينة فينيقية كبيرة وأخرى إغريقية يقودها

أميناس شقيق أخيل. فكانت الغلبة لليونانيين الذين تمكنوا من القضاء على عدد من السفن المهاجمة. وهنا استبدّ الغيظ بأحشويرش الفارسي واعتقد أن هناك خيانة فينيقية مقصودة في المعركة، واتهمهم أيضاً بالجبن. فما كان من السفن الفينيقية إلاّ إن بدأت طريق العودة، باستثناء بعض منها بقي يؤمن جسراً لانسحاب أحشويرش، بناء على طلبه. وهكذا انهار الحلم الفينيقي بتحطيم الأسطورة البحرية اليونانية، التي طالما قضّت مضجعهم في طموحاتهم إلى التوسُّع والانتشار.

الفينيقيون يردّون اعتبارهم

وبعد أشهر قليلة، عاود أحشويرش هجومه على الإغريق، وخاض معارك معهم في ساموس وبواتيا وميكال وبلاتيا، فهُزم جيشه شرّ هزيمة. ويبدو أن الفينيقيين لم يكونوا في المعركة. وأعاد اليونانيون سيطرتهم على معظم جزر آسيا الصغرى، ولم يتدخل الأسطول الفينيقي في ما بعد إلاّ لنجدة القبارصة من هجوم الأثينيين عام ٤٦٦ ق.م. ويروى أن الإغريق فتحوا المعركة مع الأسطول الفينيقي قبل بلوغه قبرص، واستدرجه إلى قتال عنيف دفعه إلى العودة إلى الشاطىء حيث بادره الجيش الإغريقي بهجوم كاسح غنم فيه اليونانيون نحو ١٠٠ سفينة. وبعد عام رقى أحشويرش ابنه أرتحششتا فتولى سدّة الملك.

وفي العام ٤٦١ ق.م. نجح اليونانيون في تحريك تمرُّد ضد الفرس في مصر، وأرسلوا أربعين سفينة لهم كانت مرابطة في قبرص لنجدة المتمرّدين، فأوعز الفرس إلى جيشهم بالتحرّك فوراً للقضاء على بذور التمرّد، وجرى صدام بين هذا الجيش العابر من كيليكيا إلى مصر مروراً بسواحل فينيقيا. وقرّر الفينيقون الثأر لهزيمتهم من الأثينيين، وقاتلوهم بحراً محقّقين انتصارات عليهم وأثبتوا أنهم قادرون على منع الإغريق من إكمال سيادتهم البحرية على الشاطىء الشرقي للمتوسط.

إعادة حسابات

على نحو أكثر من قرن بقي الساحل الشرقي للمتوسط مثار اضطرابات كان فيها الفينيقيون يعملون لمصلحة الفرس، لكن تجارتهم بقيت ناشطة. ومع تبدل الملوك الفرس واهتزاز سلطانهم، أخذ الفينيقيون تدريجاً يفكرون بإعادة حساباتهم. فقد انتهت ولاية أرتحششتا في العام ٤٢٥ ق.م. وحلّ محلّه ابنه أحشويرش الثاني الذي لم يدم ملكه سوى شهر ونصف الشهر، إذ انقلب عليه شقيقه وقتله وجلس مكانه لستة أشهر عندما انقلب عليه شقيق آخر هو داريوس الثاني الذي انتهى حكمه في العام ٤٠٥. وأعقبه ولده ارتحششتا الثاني الذي حكم حتى العام ٣٥٩ ق.م. إذ وصل إلى العرش أرتحششتا الثالث، وبقي فيه إلى العام ٣٣٨ ق.م. وشهدت هذه العهود المتتالية ثورات عنيفة، خصوصاً في مصر.

ففي العام ٤١١ ق.م. قام القبرصي أوياغورس بالاستيلاء على مدينة سلاميس في الجزيرة والتخلص من حاكمها الصوري عبدمون الموالي للفرس. ونجح في إكمال سيطرته على الجزيرة، ثم انقضّ على الساحل الفينيقي الذي كان متأرجحاً في ولائه ويميل إلى تحقيق الاستقلال، فما كان من صور إلاّ أن ساندته وأيّدت حركته ومدّته بالسفن الحربية.

ودام هذا الوضع نحو ربع قرن، عندما عقد الفرس مع اسبارطة معاهدة أنثالكيدس، في عهد أرتحششتا الثاني، وتمكنوا من إعادة تسليط الضوء على وضع أوياغورس وانتزعوا منه سلطته على قبرص وصور وتركوا له ولايته على سلاميس دون سواها.

وفي العام ٣٦٠ ق.م..عقد ستراتون ملك صيدا الميّال إلى اليونانيين معاهدات تحالف معهم. وبدأ يبرز جوّ من التعاون التجاري بدلاً من التنافس بين

الإغريق والفينيقيّين الذين استفادوا من تقديمات وامتيازات لدى نزولهم في الجزر اليونانية حيث أسسوا جاليات كبيرة، أبرزها في بيريه. وهذا ما أثار غضب الفرس الذين تدخلوا لخنق هذا التعاون في مهده. ويوماً بعد يوم بدأت ملامح الصدام تظهر بين الفرس والفينيقيين، وفي مقدمهم الصيدونيين.

إستشهاد صيدا

في هذه الأثناء، كانت المدن الفينيقية الثلاث: صيدا وصور وأرواد قد عقدت اتحاداً ثلاثياً في مدينة طرابلس، ويلتقي ممثلوها الثلاثمائة سنوياً للبحث في شؤونهم المختلفة، وقد توصل المؤتمر المنعقد في العام ٣٥١ إلى المناداة بالاستقلال. ويقول ديودورس في معرض حديثه عن مؤتمرات طرابلس أن عدداً من الموظفين الفرس تعاملوا ذات مرّة بغطرسة مع الصيدونيين في طرابلس فقرروا الخروج عن طاعة الفرس ردّاً على الإذلال، وأقنعوا سائر الفينيقيين بذلك وأرسلوا إلى ملك مصر لدعمهم، وجهزوا السفن ذات الثلاث طبقات واستأجروا المرتزقة ثم عمدوا إلى قطع أشجار الغابة التي كان يتنزه فيها الملوك الفرس، وأضرموا النار في مخازن العلف، ثم ثأروا لأنفسهم من هؤلاء الموظفين الذين تطاولوا عليهم. وعبثاً حاول واليا

من نقود صيدون في العهد الفارسي

كيليكيا وسوريا أن يقمعا الصيدونيين، بعدما وصلتهم إمدادات من أربعة آلاف مرتزقة، أرسلها إليهم ملك مصر.

وكالنار في الهشيم هبّت مدن فينيقيا تدعم صيدون، فما كانت من أرتحششتا إلا أن توجّه إلى صيدون على رأس جيش ضمّ ما بين مئتين وثلاثمئة ألف مقاتل. ويقول ديودورس إن القوة تألفت من مئتي ألف راجل و٣٠ ألف خيّال إضافة إلى ٣٠٠ سفينة حربية و٥٠٠ سفينة تجارية. ولكن ملك صيدون تنِّس خاف من شرّ المعاقبة إذا ما استمرّ في المواجهة، فخرج صاغراً مع قائد المرتزقة للاستسلام للعدو. لكن مصيره كان أسود بين أيدي الجنود المهاجمين، وفعل كذلك ٥٠٠ من أعيان صيدون الذين خرجوا يحملون أغصان الزيتون، لكن مصيرهم كان الموت الشنيع أيضاً. وعندئذ، أيقن الصيداويون أن هناك خياراً يجب اتخاذه: إمّا الاستسلام والمصير المجهول مع ما يعني ذلك من إذلال، وإمّا الموت بكرامة. وكان خيارهم هو الثاني، فأحرقوا مراكبهم لئلا تسوّل لأحدهم نفسه بالفرار عبر البحر، ثم أقفلوا على أنفسهم داخل بيوتهم وأضرموا النار فيها، وانتهت بذلك أسطورة صيدون سيدة البحار وسط الرماد، ودخل أرتحششتا هذه المدينة عام ٣٥٠ ق.م. ليبحث في رماد الجثث والخرائب عن جواهر وذهب يغنمه، وعن بعض أحياء قلائل جرى سبيهم إلى بابل.

طموحات استقلالية

لقد أحدث دمار صيدون أصداء مدوية في مختلف المدن الفينيقية، فدبّ الرعب فيها واستسلمت على الفور، ولا سيما صور ابنة صيدون وجارتها الجنوبية. وفي ظلّ بلبلة كبيرة داخل المجتمع الصوري نتيجة روح الإحباط انقلب العبيد على أسيادهم وقتلوهم واغتصبوا أرزاقهم.

ويقول المؤرخ جوستين إن أحد هؤلاء العبيد أبت عليه الشفقة أن يقتل سيده ويدعى ستراتو. وحدث أن العبيد تنادوا وتعاهدوا على أن يكون الحكم في المدينة لأوّل من يرى شروق الشمس في يوم حدَّدوه لهذه الغاية، فأخبر العبد سيّده ستراتو بذلك. وعندما حلَّ اليوم الموعود، تسمَّرت عيون العبيد كلهم إلى الشرق، فيما نظر عبد ستراتو إلى الغرب وشاهد ملامح الأشعة في أعالي الأشجار. فكان الخيار أن يملك هذا الناجي من القتل على أهل صور.

وتدليلاً على الرغبة في الاستقلال، كانت المدن الفينيقية قد باشرت بسكّ نقودها، بعدما كان داريوس فرض على الولايات العشرين التي تتألف منها امبراطوريته أن تستعمل عملة موحدة هي الداريّة، نسبة إلى اسمه. وبادرت صور قبل سواها إلى سكّ نقودها، وأعقبتها صيدون وأرواد وجبيل، وحملت النقود الصورية الأولى صوراً لصدفة الموركس التي كانت تنتج اللون الأرجواني أو دلفين فوق الموج أو ملكارت يمتطي حصان البحر على وجهها الأول، فيما تحمل رسماً للبوم متكئة على صولجان على وجهها الثاني، ويعني هذا الرسم أن الحكمة هي الجديرة بأن تحكم.

نهاية الامبراطورية الفارسية

لم تستقرّ الأمور للفرس بعد سطوتهم الدموية على الساحل الفينيقي سوى قرابة الثمانية عشر عاماً، فقد بدأت تنمو قوة الإغريق في مقابل ضعف متزايد في أوصال الأمبراطورية المترامية الأطراف. وكان همُّ اليونانيين تحرير البحر المتوسط من السطوة الفارسية وردّهم على أعقابهم وطردهم من فينيقيا والداخل السوري ومصر. وهذا ما حقّقه فعلاً الاسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين.

فقد أراد الاسكندر تحقيق أمنية والده فيليبس طرد الفرس من آسيا الصغرى، فنظم حملة في العام ٣٣٤ ق.م. وهو ما زال في العشرين من عمره، وتمكّن من تحقيق هذه الأمنية، واجتاز جبال طوروس في طريقه إلى سوريا، وهناك تصادم الاسكندر بجيش داريوس الثالث المؤلف من نحو مئة ألف رجل ولم يكن جيش اليونانيين يتعدى الخمسة والثلاثين ألفاً، لكن النصر كان حليف الأكثر تفوقاً في التخطيط العسكري. ويترك الاسكندر اسمه على المدينة التي شهدت المعارك أي الاسكندرونة على مقربة من أيسوس. وكان ذلك في العام ٣٣٣ ق.م.

وتعتبر معركة أيسوس مفتاحاً لبدء الامبراطورية اليونانية في الشرق ونهاية الامبراطورية الفارسية. وبعد هذه المعركة تابع الاسكندر دخوله المدن الفينيقية وحاصر صور ثم دخلها عنوة فدمّرها. وتابع سيره إلى فلسطين ومصر، ثمّ التفّ عائداً في اتجاه بلاد ما بين النهرين، واحتلّ بلاد فارس عام ٣٣١. وإذ نجا داريوس من الموت في المعركة، اغتاله رجلان ونصّب الاسكندر نفسه وريثاً للعرش الفارسي. واتجه إلى الهند متابعاً فتوحاته، لكنه مات بالحمى في العام ٣٢٣ ق.م. في الثالثة والثلاثين.

ويروى أن الاسكندر دخل خباء داريوس فسمع بكاء نسوة في الخباء

المجاور، وأدرك أنهن والدة الملك وزوجته وابنتاه وابنه ونسوة من العائلة المالكة، وهُنَّ يبكين لاعتقادهن أن الاسكندر قد قتل داريوس. فأرسل إليهنّ يطمئنهنّ، ثم زارهنّ في اليوم التالي يرافقه أحد معاونيه ويدعى أفاستيون، وقد هرعت والدة داريوس وركعت أمام أفاستيون ظناً منها أنه الاسكندر، وعندما أبلغت بخطئها، حاولت الاعتذار، لكن القائد اليوناني هوّن عليها الأمر وقال: هو أيضاً الاسكندر.

وجاء في إحدى رسائل الاسكندر أنه امتنع عن التردُّد على النسوة لئلا يقع في حبّ الملكة، وقد كان يأبى حتى أن يتحدث أحد عن جمالها في حضرته، كما أنه طلب بأن يعاقب بالموت كل الجنود الذين اعتدوا على نسوة أعدائهم، لأنه كان يؤمن بالمناقبية العسكرية. وما زال الاسكندر أحد رموز هذه المناقبية حتى اليوم، بمقدار ما هو رمز المقاتل الداهية والشرس إلى أقصى الحدود.

الفصل السابع

فينيقيا سيّدة المتوسط

البحر واجهة على العالم

كان لجغرافية لبنان والميزات الطبيعية التي يتمتع بها أثر كبير في تحديد طبيعة عيش الشعوب التي استوطنت هذه المنطقة من العالم وتوجيه حياتهم ونمط اقتصادهم.

فلبنان هو شريط يمتدّ على طول شاطىء البحر الأبيض المتوسط من شماله إلى جنوبه، فالبحر بالتالي هو مجاله الحيوي ومنطلقه نحو العالم الخارجي. وفي مقابل هذا البحر في الخلف، سدّ من الجبال العالية الوعرة التي يصعب على الفينيقيين بالوسائل التي كانت لديهم اختراقها، وهذا السدّ الجبلي عزّز توجه الفينيقيين نحو البحر.

ولم يكن في لبنان موارد مهمة للصناعة، فالمناجم قليلة، لأن الأرض فقيرة بالحديد والمعادن، إلاّ بعض الفحم الحجري والحمَّر، والزراعة أيضاً لم تشكل باب رزق جيد. فالسهل الساحلي خصب، لكنّه ضيّق، والجبال وعرة يصعب استخدامها لأنها تحتاج إلى نزع الصخور وإقامة الجلول. من هنا فقد فضّل الفينيقيون التجارة على الصناعة والزراعة.

وساعد في تعزيز التجارة موقعُ لبنان الوسيط بين دول العالم القديم الأساسية في أفريقيا وآسيا وأوروبا. فقام الفينيقيون باستغلال هذا الموقع لترويج تجارتهم التي ازدهرت كثيراً، وكان الخط الساحلي اللبناني خطّ تجارة وطريقاً للقوافل.

وهذا ما ساعد في اعتماد سكان هذه المنطقة على التجارة. وأدّى اهتمام الفينيقيين بالتجارة إلى الابتعاد عن الاهتمام بالسياسة والعسكر وتنظيم حياتهم السياسية. وهذا ما عزّز الروح الفردية لدى الفينيقيين، وجعلهم يبنون نظام «المدينة ـ الدولة» المستقلة الواحدة عن الأخرى، وهذا النظام زاد أيضاً في إضعاف لبنان

ككيان وقلّل من احتمالات جمعه في دولة واحدة قوية قادرة على فرض نفوذها على جاراتها.

ولأن المدن الفينيقية كانت منتشرة على طول الشاطىء، وتتمتع كل واحدة منها بفرص النجاح ذاتها، ظهر التنافس التجاري ثم السياسي بينها، ممّا حوّلها مدناً مستقلة تاريخها حافل بالتنافس أكثر منه بالتضامن، لأن كلّ واحدة عملت على الفوز بالصدارة والأولوية بين شقيقاتها.

وعزّز روح الفردية توالي الاحتلالات والشعوب على هذه المدن الفينيقية التي كان معظمها يعلن ولاءه للمحتلّ ويتنافس مع جارته المدينة الفينيقية الأخرى، خوفاً من بوار تجارته.

إضافة إلى كل هذه الأمور، أسهم امتلاك لبنان لغابات كثيفة من أرز الرّب، في ازدهار تجارة خشب الأرز الذي ذاع صيتُه بعيداً، وكان فراعنة مصر وملوك العبرانيين أول من ابتنى منه المعابد والقصور والمراكب. واستعمل الفينيقيون خشب الأرز لصنع أساطيل تجارية وحربية لهم ولسواهم.

وعُرف الفينيقيون بأسياد البحار، واشتُهرت مراكبهم لجودتها وحسن صناعتها. وتغلّبوا على الأمواج العاتية، وخاضوا غمار المغامرة، وقطعوا البحر الأبيض المتوسط، وتنافسوا مع أساطيل كبيرة في المتوسط. وهناك دراسات حديثة وبراهين تقول إن الفينيقيين تمكّنوا من اجتياز مضيق هرقل والوصول إلى القارة الأميركية واكتشافها وسبقوا بذلك كريستوف كولومبوس بمئات السنين.

واعتباراً من العام ١٢٠٠ ق.م. في الفترة التي شهدت المدن الفينيقية فترة استقلال ناجز للمرة الأولى، عرف الفينيقيون نشاطاً مهماً على الصعد الاقتصادية والصناعية والتجارية. وفي تلك الفترة بالذات وسّعوا تجارتهم البحرية، وأسسوا المستعمرات، فعرفوا بأسياد البحر، ونقلوا إلى العالم البضائع والحرف على سفينة واحدة.

الملاحة

في غياب الصناعات المهمة أو الفنون أو حتى الآداب البارزة، فإن أشهر ما عُرف به الفينيقيون وبرعوا فيه هو فنّ الملاحة الذي تقدّم تقدّماً باهراً في تلك العصور، وما دفعهم إلى ارتياد البحر هو رغبتهم في زيادة تجارتهم، وإيجاد أسواق جديدة لتصريف البضائع.

بدأ فنّ الملاحة أولاً قبل فترة الاستقلال خجولاً، فاستخدم الفينيقيون مراكب صغيرة حملوا فيها البضائع إلى الدول المجاورة، مبحرين في محاذاة الشاطىء احتماء من الرياح والأمواج، في مراكب لا تحتمل غضب البحر، وحملوا معهم إلى هذه البلدان بعض مصنوعاتهم المحلية كالزجاج والخزف، وحتى السمك.

ورويداً رويداً أخذ فنّ الملاحة يتطوّر عبر تطوّر صناعة السفن، وجعلها أكثر دقة ومتانة وقدرة على مواجهة البحار. ومع مرور السنين وتراكم الخبرات، غدا الفينيقيون ملاّحين مشهورين وماهرين، تُطلب خبرتهم وخدماتهم لدى جميع الممالك المحيطة بفينيقيا في ذلك العهد، وعلى رأسها المملكة المصرية والمملكة اليهودية اللتان استعانتا مرّات عدّة بالسفن الفينيقية وبالملاحين وبصانعي المراكب المهرة لصنع أساطيلهما الخاصة.

وبعد تقدّمهم في صناعة السفن وفي فنّ الابحار، شرع البحّارة في سلوك طرق بحرية جديدة تشقّ عباب البحر بعيدة عن الشاطىء غير آبهين بالمخاطر ممتلئين بشجاعة وإقدام وحبّ لاستكشاف المجهول والمغامرة.

وكانت للفينيقيين طرق بحرية عبر المتوسط، ثم خارجه في المحيط الأطلسي الواسع، وكانت هذه الطرق محدّدة ومرسومة تتبعها السفن في إبحارها، وقد تمّ التوصل إلى رسم هذه الطرقات نتيجة معرفة واسعة بالبحر، وتحاشياً للمخاطر قدر

التوصل إلى رسم هذه الطرقات نتيجة معرفة واسعة بالبحر، وتحاشياً للمخاطر قدر الإمكان.

واتبعت الطرق البحرية التي وضعها الفينيقيون الاقتراب إلى الشاطىء ما أمكن تحاشياً للأخطار، فكانت سفنهم تنطلق من المدن الفينيقية في اتجاه مصر جنوباً أو شمالاً نحو جزيرة قبرص، ومن هناك تنتقل إلى جزر المتوسط القريبة كجزر كريت وكورسيكا وصقلية. ومن هناك أيضاً يتوجهون إلى المستعمرات التي أنشأوها في شمال أفريقيا، وأبرزها مستعمرة قرطاجة في تونس، ثم يبحرون في محاذاة الشاطىء التفافاً إلى الشمال لكي يصلوا إلى مستعمراتهم في إسبانيا على المتوسط. وكأن هذا البحر كان بحيرة فينيقية، طرقها ومراكبها وسيادتها حكراً لهم. وظلّ هذا الوضع هكذا لسنوات إلى أن جاء الأسطول الإغريقي وبدأ بمنافسة الأسطول الفينيقي التجاري وبدأ الصراع على سيادة البحيرة المتوسطية.

حماية الطرق التجارية

لمّا كان الفينيقيون أسياد البحر، ولمّا ازدهرت تجارتهم أيما ازدهار وتوسّعت مستعمراتهم في مختلف مناطق البحر الأبيض المتوسط، حاولوا حماية طرق التجارة البحرية التي رسموها لأنفسهم مخافة المنافسة.

وتتعدّد الروايات حول أساليب حماية الطرق التجارية. ويورد الأب أويسيبيوس في ترجمة سريانية عن نص أصلي باليونانية، والذي ترجمه إلى العربية الدكتور عبد الله الحلو في كتاب «الفينيقيون» للمؤلف فرانتس كارل موڤرز:

«إن الفينيقيين قد حرسوا المناطق التي تحت سيادتهم بحيث لم يستطع إنسان عبورها أو حتى إقامة مواصلات فيها أو معها. وذلك بأن كانوا يخرّبون باستمرار المناطق المتاخمة لهم، آملين من ذلك في أن يقللوا من مدنها ويجعلوا منها أسيرة لهم».

ولكن الكاتب يستبعد أن يكون هذا الأمر دقيقاً لما عُرف عن الفينيقيين من علاقاتهم الجيدة مع محيطهم ومن انفتاحهم على الدول الأخرى، ومن كون بلادهم

ملتقى للشرق والغرب.

إلاّ أن الفينيقيين، وكما يورد كتاب موفرز، كانوا يتنافسون مع الإغريق على مناطق النفوذ في المتوسط، قبل أن يسيطر الإغريق سيطرة تامة على فينيقيا، ويتغلب أسطولهم على الأساطيل الفينيقيّة العريقة.

وكانت حدود الأسطول الإغريقي لا تقترب من مناطق نفوذ الفينيقيين وطرقهم التجارية البحرية ومستعمراتهم المنتشرة حتى جزيرة كريت جنوباً إلى شمال أفريقيا.

ويروي بعضهم أن البحارة الفينيقيين كانوا يهاجمون السفن التي تقترب من شواطئهم أو من طرق تجارتهم ويقومون بإغراقها عبر ثقب قعرها. وتضخِّم الروايات سطوة الفينيقيين وجبروتهم في هذا المجال، حتى قيل إن هذه الروايات اخترعها الفينيقيون أنفسهم لبثّ الرعب في قلوب كلّ من حاول منافستهم في مجالهم الرحب، البحر.

الأسطول الفينيقي

كان للمدن الفينيقية أسطولان: بحري وتجاري، لكلّ منهما مميزات خاصة وطرق تصنيع وتوزيع للمهام على البحّارة. ولكن هذين الأسطولين تمتّعا بصفات وتقنيات رفيعة الشأن جعلتهما يكونان الأسطولين الأولين في البحر المتوسط.

والأسطول الفينيقي كان يستخدمه الفينيقيون ويستعين به حلفاؤهم في أحيان كثيرة، بينما كانت تُبنى سفن خاصّة حربية لبعض الملوك، وعلى رأسهم ملوك الفرس.

ويُعتقد أن الأسطول الحربي الفينيقي بلغ أعلى قوة له في العصر الفارسي. ويُقدر عدد السفن الحربية الكبيرة الأساسية بثلاث مئة سفينة، موزّعة على المدن الثلاث الرئيسية صيدون وصور وأرواد. وكانت قيادة كل سفينة تحتاج إلى حوالي مئتي شخص من ملاحين ومجذِّفين.

وإلى جانب السفن الكبيرة، كانت هناك سفن صغيرة متنوعة المهام وسفن تموين، ترافق عادة السفن الحربية. وهذه تقدر بثلاثة آلاف سفينة.

الفينيقيون مئتي سفينة حربية، رافقها ألف سفينة تموين.

أمّا الأسطول التجاري فكان أكبر من الأسطول الحربي بسبب كون المدن الفينيقية مدناً تجارية في الدرجة الأولى وليست حربية إلاّ في الأحوال الاستثنائية.

التجارة الفينيقية: شهادة حديثة

في العام ١٣١٨ ق.م. غرقت سفينة تجارية كنعانية في البحر المتوسط، وكانت تنقل ١٥ ألف قطعة من الأدوات المتنوعة تنتمي إلى عشر ثقافات مختلفة، بدءاً بأفريقيا الاستوائية وصولاً إلى أوروبا الشمالية.

وفي العام ١٩٨٢، عثر غطاس من صيادي الإسفنج على هذه السفينة في قاع البحر جنوب تركيا، وبدأ العلماء بدراسة هذا الكنز ابتداء من العام ١٩٨٤.

وبعد إحدى عشرة سنة و٢٢٥٠٠ غطسة حتى العام ١٩٩٥، تمّ إحصاء كامل القطع التي وُجدت على متن هذه الباخرة. لقد كانت بالفعل ما يُشبه مغارة علي بابا، بعشرين طناً من البضائع المختلفة. وعدّدت مجلة Sciences et Vie في عددها الصادر في تشرين الأول ١٩٩٥ من هذه البضائع: عشر سبائك من القصدير والنحاس، بوق على شكل قرن الماعز مصنوع من أضراس فرس البحر، خشب أبنوس أفريقي، بيض النعام من الشرق الأوسط، الكثير من الجرار والأسلحة، كميات وافرة من الذهب والعاج، ألواح خشبية، جُعَل من ذهب في حجم الزر تحمل اسم الملكة نفرتيتي.

إن هذا الكنز هو في اختصار عالم مصغّر عن عصر البرونز وهو يشكل برهاناً ساطعاً على امتلاك الكنعانيين للتجارة البحرية، بحيث يمكن القول أن فكرة السوق المشتركة قد بدأت بالظهور قبل ثلاثة وأربعين قرناً.

وهكذا يظهر أن البضائع التي كانت تشكل مادة تجارة للفينيقيين كانت مختلفة ومتنوعة المصدر. فكانوا يصدّرون إنتاجهم الخاص من المواد الغذائية والأدوات والأقمشة، ويأتون بما يحتاجون إليه من بضائع غير متوافرة لديهم، ولكنهم كانوا أيضاً يشكّلون صلة وصل بين بلدان البحر المتوسّط ناقلين البضائع من هذا البلد

إلى ذلك.

ولم تقتصر التجارة على الطرق البحرية فقط فقد كانت للفينيقيين تجارة برية مزدهرة وطرق يسلكونها شرقاً للوصول إلى سوريا الداخلية ومنها إلى بلاد ما بين النهرين.

أما أهم البضائع التي شكلت مواد التجارة، فهي الخشب اللبناني والخمر اللبناني اللذان لم يكونا متوافرين في أي من البلدان الأخرى. وكان الفينيقيون يشترون المواد الغذائية الأخرى كالحنطة والزيت من فلسطين، ويبادلونها بأدوات للزينة مثلاً، ويستعملون حاجتهم منها، فيما يبيعون ما يفيض إلى من يطلب.

تقنيات الإبحار وكفاية البحارة

بلغت تقنيات الإبحار وصناعة السفن مبلغاً متقدماً جداً في الاتقان في أيام الفينيقيين، واستناداً إلى تلك العصور كانت السفن الفينيقية متطوّرة، من حيث الأشرعة وكفاءة المجذفين وسرعة الإبحار.

وقدّر اريستيدس سرعة السفينة الفينيقية بثلاثين ميلاً بحرياً في اليوم، عندما تكون سرعة الرياح معتدلة وفي الطقس الجيّد. وكانت مثلاً المسافة بين الاسكندرية ورودوس تُقطع بأربعة أيام تقريباً، وحسب جدول الأرض الذي وضعه إراتوسثنس Eratosthenes فيقدِّر المسافة بين أعمدة هرقل وقرطاجة في تونس بـ ٢٢٠ ميلاً بحرياً، وتستمر حوالي السبعة أيام.

ويروي هيرودوت أنّه في سباق بحري حضره الملك الفارسي كانت السفن الصيدونية في الطليعة، وحلّت ثانيةً السفن الأروادية.

وكان البحّارة الفينيقيون يخضعون لتدريب مكثّف، ليتمكنوا من تلبية متطلبات التفوق في الإبحار التجاري. ويمتدح الكتاب الفينيقيين كبحّارة، وطريقتهم في بناء السفن والأشرعة وضع المجاذيف وشكل السفينة المتناسق.

وتفوّق الفينيقيون أيضاً في فنّ الإبحار، وتميزوا بخبرة واسعة ودقّة في فنون البحرية.

واعتمدوا في أسفارهم نجمة القطب كدليل مضمون، بدلاً من الدب الأكبر الذي اعتمده الإغريق. وكان التنسيق جيداً بين البحّارة، وهم تمكنوا من تحدّي الرياح والسير في عكس اتجاهها بواسطة تقنية تجذيف واستعمال للأشرعة. وراقب الفينيقيون بدقّة النجوم وعرفوا اتجاهاتها، واعتمدوا عليها في أسفارهم اعتماداً كبيراً.

أمّا بالنسبة إلى الملاّحين، فكان عملهم منظّماً تنظيماً دقيقاً. والملاّحون الذين يثبتون كفاءتهم في الأسطول التجاري ينقلون إلى الأسطول الحربي. وكان هناك الملاّح قائد الباخرة وشخص ينوب عنه في حال إعياء أو مكروه.

ومن هنا يُعتقد أن الفينيقيين كانت لديهم الخبرة الكافية للإبحار في البحار المفتوحة إذا كانت الأحوال الجوية ملائمة والرياح معتدلة والجو صافياً يسمح بمراقبة الفلك. أما في الأحوال الجوية السيئة، فإن السفن الفينيقية كانت تبحر في موازاة الشاطىء وخصوصاً بعد عبور السفن مضيق جبل طارق، حيث تسير قرب الشواطىء الأوروبية الغربية أو الشواطىء الأفريقيّة الغربية، حتى أواسط أفريقيا.

واستعان الفينيقيون بالطيور للاستدلال على الشاطىء، في حال تاهت السفن عن مسارها بسبب سوء الرؤية وسوى ذلك، لأن الطيور تتجه غريزياً صوب البحر. من هنا، ربّما جاءت حكاية حمامة نوح التي أطلقها بعد الطوفان الكبير لاستكشاف البرّ، هذه الحكاية ذات المصدر البابلي، غير البعيد عن الحضارة الفينيقية.

وكان استعمال الطيور للاستدلال إلى البرّ عادة شائعة لدى عدد آخر من الشعوب كالفرس والبابليين، ويرد ذكر الحمام كثيراً في الأسفار البحرية.

عصر سيادة صيدا

ويعزو المؤرخون إلى صيدا ابتكاراتها الحضارية الأبرز، ويعطونها الأسبقية بين شقيقاتها الفينيقيات، خصوصاً عالم الملاحة والتجارة البحرية. ويقول العالم الفرنسي بوجولا في «مراسلات المشرق» تعليقاً على ما قدّمه الفينيقيون للعالم القديم من منجزات إنهم ربما استقوا من الهنود والفرس والبابليين بعضاً من المعارف، لكنهم تمكّنوا من تحويل شرارة صغيرة إلى شمس ساطعة، ونشروا أضواءها على العالم، فيما كان المصريون القدماء يخبئون معارفهم وينغلقون على أنفسهم خوفاً من انتشارها.

وتمكّن الصيدونيون من تأسيس محطات تجارة ومستعمرات في أرجاء البحر المتوسط. ويتحدث المؤرخ لانرمان في مجلّده السادس عن دور أساسي للصيدونيين في بناء الأساطيل البحرية التي استخدمها الغزاة في تعاقبهم على المنطقة. ويرى أن المصريين والأشوريين والفرس لم يبنوا أساطيلهم الخاصة بل لجأوا إلى الفينيقيين والصيدونيين تحديداً، والإغريق والكيليكيين لهذه الغاية.

فالمصريون خافوا ركوب البحر لأن تقاليدهم الدينية صوَّرت لهم ذلك العمل وكأنه نجاسة، فيما كان الفرس والأشوريون يكرهون البحر ولم يعملوا على بناء الأسطول إلاّ عند اضطرارهم إليه.

ويعتقد أن الجنود الذين كانوا يجبون الضرائب للملكة المصرية في عهد طحوتمس فينيقيون، وكان الأسطول الذي بناه الفينيقيون بسواعدهم يجوب المستعمرات التي سبق لهم أن افتتحوها تجارياً، جامعاً للملك الفرعوني ما له من متوجبات لدى أهل هذه المستعمرات والجزر. ولم يقتصر هذا العمل على البحر الأبيض المتوسط الذي كان ميداناً فينيقياً بامتياز، بل تعدّاه إلى البحر الأحمر،

حيث كانت مهمة الفينيقيين هناك مزدوجة، أي أنها تبدأ عسكرية بإخماد نقاط التوتر في بلاد العرب الجنوبية وتأكيد السيادة المصرية فيها، ثم تنتهي تجارية بنقل الغلال عبر السفن المقاتلة إلى شاطىء المتوسط، وغالباً ما تكون هذه الغلال من العاج والأخشاب والأحجار الثمينة والمعادن. وقد أظهرت النقوش الفرعونية دوراً كبيراً للسفن الفينيقية في الأسطول المصري.

لكن هذه السيادة المصرية في عالم البحر، تراجعت لاحقاً مع بروز نجم الأسطول اليوناني وفتوحاته المتوسطية. إذ تمكّن اليونانيّون من تركيز سيطرتهم على الشاطىء الشمالي للمتوسط، أي الشاطىء الأوروبي. وفي وقت لاحق عقد تحالف بينهم وبين الليبيين، ثم قطعوا الطريق الفينيقية البحرية إلى البحر الأسود عبر المضائق الواقعة بين تركيا واليونان، أي البوسفور والدردنيل. وأدّى ذلك إلى تراجع المدى الحيوي التجاري للأسطول الفينيقي، الذي كان العماد الأساسي لازدهار المدن الفينيقية.

وأمّا الضربة القاضية لصيدا فلم تكن على أيدي اليونان وأساطيلهم البحرية، بل على أيدي الإسرائيليين الذين احتلوا بلاد كنعان. ويقال إن يشوع بن نون دمّر إحدى وثلاثين مملكة صغيرة ومثّل بملوكها الذين كانوا من أنصار الصيدونيين. ثم عمد إلى تشديد الضائقة على المدينة، فنزح منهم كثيرون. وفي ما بعد، جاء الفلسطينيون من الجزر المتوسطية الشرقية ونزلوا على الشاطىء. ويعتقد لانرمان أن رعمسيس الثالث واجههم وأسر الكثيرين منهم وجعلهم في غزّة وأسدود وعسقلان وسواها من المناطق الفاصلة بين مصر وسوريا. ولكنهم تكاثروا لاحقاً وبدأوا يتوسّعون حتى بلغوا صيدون فدمّروها قرابة العام ١٢٠٠ ق.م. فانتهت عظمة تلك المدينة.

عصر سيادة صور

تجمّعت الأحداث والمصائب ربّما التي جعلت مدينة صور تقوى رويداً رويداً لتبدأ أن تكون سيدة المدن الفينيقية لزمن طويل.

فبعد الغزوة الفلسطينية لساحل فينيقيا الجنوبي، عين الفلسطينيون حراساً لهم في بلاد العبرانيين، من دون أن يتولوا شؤون الفينيقيين مباشرة. ونتيجة لهذه الأحداث فرَّ العديد من سكان صيدا إلى مدينة صور، وتجمّعوا حول معبد الإلٰه ملكارت. وهكذا بدأت صور تكبر وتتّسع ويزيد عددُ سكانها ويقوى نفوذها.

وهكذا خلفت مدينة صور مدينة صيدا في السيادة وأصبحت عاصمة الفينيقيين. وفي هذا العهد الذي دام نحو خمسة قرون، عاش الفينيقيون في العصر الذهبي للتضامن والتآزر، إذ ازدادت عليهم الضغوط الخارجية ودفعتهم إلى الوقوف صفاً واحداً وحماية الأرض من الغزاة الحالمين بالسيطرة على الشاطىء الفينيقي، سواء من الجنوب أو الغرب أو الشرق، حيث الآراميون من جهتهم استقرّوا في الداخل السوري على حساب الوجود الكنعاني. وخضع ملوك المدن الفينيقية لمشورة ملك صور باعتباره سيّد فينيقيا كلّها. وكان يطلق عليه أحياناً اسم ملك الصيدونيين، انطلاقاً من تسمية الكل بالجزء، وكان على ملك صور أن يحسم في الخلافات بين ملوك المدن الأخرى، وأن يبرم العهود مع الدول، وكان قائد الجيوش. وله اتصال بسائر المدن الفينيقية عبر موفدين في هذه المدن لدى صور العاصمة. ويظهر أن أبناء المدن الفينيقية كانوا يتهافتون للعمل في صور المزدهرة بشقّيها البحري والبري، بحيث توافدوا إليها من أرواد وصيدون وسواهما ليعملوا في حقل التجارة والملاحة والجندية.

وسجّل عهد صور أعظم الفتوحات التوسعية، وأبرزها قرطاجة ورحلة حنون

إلى ما وراء جبل طارق ودورانه حول أفريقيا. ويروي بعض المؤرخين القدماء أن القرطاجيين أرسلوا حنون على رأس ستين سفينة في هذه المرحلة الشاقة. ويقول هيرودوتس إنه ليس من يجهل أن أفريقيا محاطة بالمياه باستثناء الخليج الذي يربطها بقارة آسيا (قبل فتح قناة السويس). ويضيف أن الملك فنكو سيّر سفناً ملاّحوها فينيقيون فأبحروا من البحر الأحمر عبرالمحيط الهندي، لكن مؤونتهم نفذت فاضطروا إلى النزول على الشاطىء وزراعة الأرض وانتظار حصادها قبل أن يتابعوا رحلتهم. وفي السنة الثالثة عبروا مضيق جبل طارق وبلغوا مصر. ويروي المؤرخ اليوناني الملقب بأبي التاريخ أن بعضهم أخبره بأن الشمس كانت على يمين المسافرين في دورانهم حول أفريقيا.

ملوك صور في عصر الازدهار

وأمّا ملوك صور في تلك الحقبة فهم نقلاً عن لانرمان وتعريب المطران يوسف الدبس في «تاريخ سوريا الدنيوي والديني»:

حيرام الأول	ملك نحو سنة ١٠٠٠ ق.م.
أبيبعل	(لم تعرف سنوات ملكه)
حيرام الثاني	٩٤٤
بعل عازر	٩٤٤ ـ ٩٣٧
عبد عشتروت	٩٣٧ ـ ٩٢٨
دليل عشتروت	
عشتروتي	لم تعرف سنوات ملكهم
عشتوريم	
فاليبا	
ايتو بعل الأول	٨٨٤ ـ ٨٤٤

بعل عازر الثاني	٨٤٤ ـ ٨٣٨
ماتان	٨٣٨ ـ ٨٢٩
بيغماليون	٨٢٩ ـ ٧٨٩
حيرام الثالث	نحو ٧٧٠
موتون الأول	٧٣٠
الولا	٧٢٤
إيتو بعل الثاني	(لم تعرف سنوات ملكه)
بعل	نحو ٦٧٠
ياملك	٦٥٠
ايتو بعل الثالث	٥٩٠
اتبعل	٥٧٤
بعل الثاني	٥٧٤ ـ ٥٦٣
قضاة	٥٦٣ ـ ٥٥٩
بعل لاتور	نحو ٥٥٦
مور بعل	٥٥٥ ـ ٥٥١
حيرام الرابع	٥٥١ ـ ٥٣١
موتون الثاني	نحو ٥٣١

وكانت ولاية موتون الثاني هي الأخيرة قبل أن تصبح فينيقيا الولاية الخامسة في الامبراطورية الفارسية.

الفصل الثامن

المستعمرات

بلغت فينيقيا في سيادتها على البحر أشواطاً بعيدة كما ذكرنا، وأخذ بحارتها بالانتشار في دائرة البحر المتوسط، وخرجوا أحياناً إلى المحيط الأطلسي فأنشأوا المستعمرات التي كانت بمثابة نقاط حضارية أكثر منها احتلالية. ذلك أن الفينيقيين لم يكونوا موهوبين في ميدان التفوّق العسكري، بل في ميدان التجارة ولعب دور الوسيط والناقل للحضارة، وفي طليعة ذلك الحرف. وثمّة مؤرخون يقولون إن البحر المتوسط سمّي كذلك لأنه يتوسط المستعمرات الفينيقية.

في شرق المتوسط

أبرز هذه المستعمرات كانت جزيرتي قبرص ورودس. ومن البديهي أن تكون قبرص أولى المحطات الفينيقية البارزة لأن الجزيرة قريبة جداً من الشاطىء الفينيقي قبالة الجبل الأقرع، وهي تظهر واضحة بالعين المجردة للناظر إليها من بعض جبال لبنان، إذا كانت الرؤية حسنة. وتشير بعض الأبحاث إلى أن قبرص كانت تضم تسع مدن، خمس منها فينيقية هي: كثيم (وهو اسم ابن ياوان بن يافث) وأمانوس وسولي ولبثيوس وسيرينا. وقد اتبع أهل قبرص ديانة الفينيقيين ذاتها، مع تأثر بجيرانهم الإغريق. ومن الأدلة على ذلك العثور على نقش هو تقدمة لبعل فينيقيا، ويعود تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد. أمّا في رودوس التي تقول الأسطورة إن قدموس مرّ بها في طريقه إلى بلاد الإغريق لنشر الأبجدية، ففيها آثار فينيقية عدّة، وقد ساهم الفينيقيون في ازدهارها.

في الجزر الإغريقية ووسط المتوسط

تؤكد أسطورة قدموس أنه انتقل إلى اليونان قاطعاً البحر من شاطىء فينيقيا، وكان له الفضل في حمل حروف الأبجدية إلى تلك البقعة من العالم، قبل انتشارها في ما بعد على المعمورة. ومفاد هذه الأسطورة أن قدموس ذهب في البحر بحثاً عن أخته «عُربا» أي الغرب بتكليف من أبيه الملك أجنور بعدما اختطفها الإلٰه الإغريقي زفس المتخفي بجسم ثور، ونقلها إلى جزيرة كريت حيث استرجع طبيعته البشرية وتزوج «عُربا» وأنجب منها مينوس، أبرز ملوك كريت ورجال الاشتراع فيها. وفي ما بعد أطلق اسم «عُربا» أي أوروبا على القارة بكاملها، وما زال حتى اليوم. وثمة قرى ومدن في الجزر الفينيقية تحمل أسماء تعود بجذورها إلى اللغة الفينيقية. كما أن الإلٰه ملكارت هو نفسه هرقل الإغريقي الذي تنسب إليه الأساطير أنه كان خارق القوة والشجاعة.

أمّا على الصعيد الزراعي فأبرز ما نقله الفينيقيون إلى أوروبا هو شجرة الزيتون حيث ما زالت اليونان وإيطاليا وإسبانيا، كلها بلدان مشهورة حتى اليوم بإنتاجها من الزيتون والزيت والصابون.

أمّا مالطا فيقول ديوذْورس سيكولس إن أهلها كانوا فينيقيين، إذ كانت ملجأً لهم ولسفنهم. وهو ربما يقصد أهل قرطاجة، إذ كان يدعوهم أيضاً فينيقيين. وتشير الأبحاث أيضاً إلى أن الفينيقيين اتخذوا من صقلية نقطة ارتكاز تجارية مهمة، وتمكنوا من التأثير على سكانها ثقافياً ودينياً.

في غرب المتوسط وشبه الجزيرة الإيبيرية

بنى الفينيقيون محطّات لتجارتهم في كورسيكا وسردينيا وجزر البليار التي كان يقطنها سكان ذوو أصول إسبانية قديمة. وأنشأوا مستعمرة أطلقوا عليها اسم ترشيش، كان الإغريق يسمّونها أتيكا، وهي ذاتها الأندلس بلسان العرب. ويبدو أن ترشيش وطرسوس الواقعة في كيليكيا هما اسمان ساميّان يعودان إلى جذر لغوي واحد. كما أن كثيراً من أسماء القرى والمدن والجزر الإسبانية ما زالت حتى اليوم تحتفظ بأصلها الفينيقي، وثمّة من يعتقد أن برشلونة هو تحريف لبرقلونة، استناداً إلى البطل القرطاجي هملقار برقة، والد هنيبعل، الذي جمع الجيوش في تلك البلاد للانقضاض على روما.

في المحيط الأطلسي

اجتاز الفينيقيون أعمدة هرقل، وعبروا البحر الأبيض المتوسط الذي ضاق بطموحاتهم وتجارتهم إلى المحيط الأطلسي. وكان ذلك فتحاً كبيراً في عالم الإبحار، ذلك أن اجتياز مضيق جبل طارق كان محفوفاً بالصعوبات. ولم يكن متيسّراً للسفن المصنوعة في تلك العهود أن تخوض غمار المحيط الأطلسي المفتوح على الأنواء والعواصف، خلافاً للبحر المتوسط الذي يبدو قياساً إلى ذلك المحيط أشبه ببحيرة مغلقة هادئة. فقد استهوت الفينيقيين المغامرة وخرجوا من المتوسط الذي كانوا أسياده لفترات طويلة بعدما أسسوا مستعمرة قادش. وسلكوا مساراً محاذياً للشاطىء الأوروبي شمالاً حتى الجزر البريطانية التي تمّ اكتشاف أثر قرطاجي فيها. ويرجح أن يكون الفينيقيون قد قصدوا هذه البلاد بحثاً عن تبادل تجاري بين منتوجاتهم، وأبرزها الزيت والخزف والزجاج، والقصدير الذي اشتهرت به هذه الجزر وفق ما يقول سترابو. وهناك مصادر تاريخية تقول إن القصدير كان ينقل بحراً من الجزر الانكليزية إلى شواطىء بلاد الغال، ومنها عن طريق البر إلى مرسيليا، التي يرجّح بعض الدارسين أن يكون أصل اسمها الفرنسي مرساي هو مرسى، ومن المعروف أن هذه المدينة الفرنسية الواقعة على شاطىء المتوسط كانت مستعمرة فينيقية.

قرطاجة ابنة صور

ما كاد الفينيقيون ينتهون من تحويل البحر المتوسط إلى واحة مستعمرات حضارية لهم، حتى قرّروا تتويج عملهم ببناء لؤلؤة مستعمراتهم على الشاطىء التونسي، وهي قرطاجة. وتقول الأسطورة إن ملك صور، ويدعى متّان، أوصى أن يكون العرش بعد موته لابنه بيغماليون وابنته أليسار معاً، فيحكمان سوياً. وكانت أليسار زوجة أسرباس أو زيكار بعل، وهو رئيس الكهنة وكاهن ملكارت الذي يتمتع بمقام هو الأرفع في المملكة بعد الملك، كما أنه كان يمتلك ثروة هائلة لطالما اشتهى أعيان صور أن يكون لهم مثلها.

وعندما توفي الملك متّان، وانتقلت السلطة إلى ولديه، اجتاحت بيغماليون موجة من الحسد والطمع، وبدأ يخطط للاستئثار بالسلطة والمال، فعمد إلى قتل صهره. وجاء في بعض المراجع أن بيغماليون دعا صهره إلى مشاركته رحلة صيد. وفي وسط الغابة طعنه بسهم ورمى جثته في إحدى الحفر، وادعى للمرافقين أنه سقط فيها خطأ.

تلقّت أليسار الطعنة بكثير من رباطة الجأش، وقد علمت حقيقة ما جرى بين شقيقها وزوجها الذي كان في الوقت ذاته عمّها، وأيقنت أن الضربة المقبلة ستكون موجّهة إليها في الصميم للقضاء تماماً على دورها وسلبها ما لها من سلطة وثروة. وقرّرت اتخاذ خطوة إنقاذية جبّارة، سجّل التاريخ لاحقاً أنها من الخطوات المجيدة في تاريخ فينيقيا. فقد جمعت أليسار ما أمكنها من ثروة زوجها، وقرّبت إليها مجموعة من المؤيّدين الذين كانت لهم مآخذ على أسلوب شقيقها في الحكم، وجهّزت هذا الفريق لخطوة الهرب من البلاد.

وإنجاحاً للخطوة، أوحت أليسار لشقيقها بأنها ترغب في الانتقال إلى قصره

والإقامة في ضيافته،
ففرح بذلك لظنّه أنها
ستجلب إليه تركة
زوجها الكبيرة من
الأموال
وستخضع
له حاكماً
فردياً
للمملكة.
وبعث إليها
بالسفن
والرجال
لينقلوها إلى
قصره، لكن
أليسار التي تمتلك
ذكاء مميّزاً تسلّلت
بالأموال إلى هذه
السفن فيما حمل
الرجال أكياساً كانت
أليسار قد أمرت
رجالها بتعبئتها رملاً.



نقد صوريّ يمثّل إبحار أليسار

ومع اشتداد الظلام، أطلقت أليسار إشارة الانطلاق نحو أرض أخرى خارج حدود الوطن. فأقلعت السفن بالثروة المحمّلة فيها والرجال المخلصين الذين سيكونون في ما بعد نواة مملكة جديدة على الشاطىء الشمالي لأفريقيا. ويقول المؤرخ سرفيوس إن أليسار ضمت إلى أسطولها الهارب من صور مجموعة من

السفن التي كانت محمّلة بالأموال، استعداداً للسفر إلى بلاد غنيّة بالحنطة وشراء منتوجاتها.

ومضت السفن في طريقها، ولدى بلوغها عرض البحر، ألقى الرجال منها أكياس الرمل وتابعوا الإبحار حتى وصلوا إلى شاطىء قبرص. ويقول بعض المؤرخين إن كاهن هيكل جوبيتر انضم إلى المجموعة المبحرة، وعمدت أليسار إلى احتجاز ثمانين عذراء قرّرن تقديم بكارتهن قبل الزواج وفقاً للعادات التي كانت متَّبعة لأن فينوس، إلٰهة الحب والخصب ستعوّضهن لاحقاً هذه التضحية بأن تكون لهنّ عوناً في المحافظة لاحقاً على العفّة. وفي ما بعد أصبحت هؤلاء العذارى أمهات الأجيال التي ولدت في قرطاجة.

وإذ قرّر بيغماليون اللحاق بشقيقته والانتقام منها للحيلة التي لجأت إليها، كانت والدته تثنيه عن هذا العمل، وكذلك الآلهة التي يقال إنها هدّدته باللعنة إذا ما فعل.

وواصلت أليسار رحلتها، وحطّت رحال رجالها عند شاطىء تونس التي كان يحكمها ملك ذو هيبة ووقار. فتوجّهت إليه ابنة صور المهاجرة واستأذنته استغلال بقعة محدّدة المساحة لتقيم فيها وأعيانها المتعبين من سفر البحر والغربة عن الوطن، فوافق الملك على ذلك شرط ألاّ تتعدى هذه البقعة، مساحة جلد ثور. ولعلَّ الجمال الأخاذ الذي تمتعت به أليسار هو مادة الإغراء الأساسية التي دفعت بالملك إلى هذه الموافقة. وقبلت الضيفة بهذا الشرط، ولم يكن أمامها حلٌّ آخر. وبعد تفكير عميق، لمع في ذهنها مخرج من المأزق الذي يتضمنه شرط الملك، فأوعزت إلى رجالها بتقطيع جلد الثور خيوطاً رفيعاً جداً ولكن طويلة بحيث تمّ نشرها في أرجاء واسعة من ذلك الشاطىء. فدهش الملك لذكاء أليسار وسكت على حيلتها، وبالتالي سمح لقرطاجة بأن تولد عملياً. وقد تقاطرت إلى المملكة الجديدة جموع من أهل الشاطىء الأفريقي ورحبت بالقادمين من الشرق، وبدأت رحلة التفاعل والإندماج معهم. وكان ذلك في العام ٨١٤ ق.م.

نهاية أليسار وبداية الطموحات

ولم تمض فترة طويلة حتى بدأ الملك يتودّد لأليسار، وجمع عدداً من أنصارها وأسرَّ إليهم برغبته في الزواج منها. وقد نقل هؤلاء الرغبة إلى قائدتهم بأسلوب غير مباشر لعلمهم أنها وفية لذكرى زوجها، وقد أقسمت على ألاّ تتزوج بعد وفاته، وكان هذا موقف أليسار بالفعل.

وأمام الحائط المسدود الذي بلغته طلبت من أنصارها مهلة ثلاثة أشهر للإجابة على الطلب. وخلال هذه الفترة بنت محرقة من الحطب، واعتلت قمتها، وأشعلت فيها النيران، وماتت شهيدة وفائها الزوجي الخالد، لكنها بقيت رمز قرطاجة وإلٰهتها الكبرى على امتداد الأجيال التي ازدهرت فيها، حتى أفول نجمها على أيدي الرومان.

وأخذت قرطاجة تزدهر في اطّراد، واتسعت تجارتها بحيث نافست صور الأم ومدن فينيقيا قاطبة بعد أقلّ من مئة عام على تأسيسها. وساهم في ذلك انهزام صور أمام الأشوريين الذين اكتسحوا فينيقيا بأسرها. ولم يبق من هيبة صور على ابنتها الأفريقية كثير من الارتباطات وأبرزها أن النقود القرطاجية بقيت تحمل عبارة «صور أم قرطاجة» حتى زوالها في العام ١٤٦ ق.م. ويشير المؤرخون إلى أن عشرة في المئة من واردات قرطاجة التجارية وغنائم الحروب كانت ترسل إلى هيكل ملكارت الذي كان القرطاجيون يسافرون إلى صور سنوياً للمشاركة في عيده. لكن هذه النسبة أخذت بالتراجع مع ازدهار التجارة القرطاجية، حتى أن القرطاجيين اعتقدوا أن هذا التقتير أدى إلى غضب الآلهة عليهم ممّا تُرجِم هزيمة أمام جيش أغاتوكلس بين عامي ٣١٠ و٣٠٦ ق.م. وقد تعمّد القرطاجيون أن يشركوا مدينتهم الأم صور في اتفاقيتهم الثانية مع الرومان.

وفي المقابل، تمنّع أهل صور عن الاستجابة لطلب قمبيز بن قورش الفارسي تسخير الأسطول الصوري في المعركة ضد قرطاجة، على رغم الضغوط التي مارسها لذلك خلال الاحتلال الفارسي للمنطقة، وكانت صور ملجأ هنيبعل من الرومان في العام ١٩٥، فيما كانت قرطاجة ملجأ كثير من الصوريين خلال حصار الاسكندر المقدوني لمدينتهم.

الحروب مع روما

كان تأسيس قرطاجة سابقاً لتأسيس روما بنحو ستين سنة، وأخذت سطوة الرومان تنمو شيئاً فشيئاً لتبسط لواءها خلال نحو خمسة قرون على شبه الجزيرة الإيطالية. وابتداء من العام ٢٧٠ ق.م. شرع الرومان في التطلّع إلى خارج حدودهم، ولم يكن أمامهم من قوى عظمى تنافسهم على السيادة في أواسط المتوسط وغربه إلاّ قرطاجة. ولذلك قرّرُوا توجيه ضربة إليها تحدّ من نفوذها فاستغلّوا انشغالها في معركة بينها وبين الإغريق في سرقسطة عام ٢٦٤ ق.م. وانحازوا إلى أعداء قرطاجة. وهكذا بدأت المواجهة العسكرية المباشرة بين الجانبين في ما أُطلق عليه تسمية الحروب الفينيقية أو الفونية، والتي امتدّت على نحو قرن كامل.

إندلعت الحرب الفونية الأولى في صقلية التي كانت مقسومة بين منطقتين يتنازع عليهما السيادة كلّ من قرطاجة وسرقسطة، وقد دخل الرومان في مواجهة القرطاجيين الذين يشكّلون العدوّ المشترك. وامتدّت هذه الحرب ما بين عامي ٢٦٤ و٢٤١ ق.م. وعمد الرومان خلالها إلى محاصرة قرطاجة بأسطول عملاق، فقاومهم القرطاجيون ببسالة، وكان على رأسهم هملقار برقة والد هنيبعل، وتمكّنوا من صدّ الهجوم على اليابسة، وأسعفهم إعصار شديد ساهم في شلّ قدرات الأسطول المهاجم وبعثرة سفنه. إلاّ أن روما أعادت بناء أسطولها، وقرّر مجلس الشيوخ فيها شنّ هجمات جديدة على قرطاجة. وإزاء هذه الضغوط، فضّل القرطاجيون الانسحاب من صقلية والتفرّغ للدفاع عن الوطن. وانتهت تلك الحروب بأن غادر هملقار صقلية إلى قرطاجة، ووقّع اتفاقية صلح مع أعدائه، كانت عملياً

بمثابة هدنة قصيرة.

ولكن، وبعدما فقدت قرطاجة سيطرتها على صقلية، سعت إلى احتلال مناطق أخرى من أوروبا لتعويض خسارتها، فتطلعت إلى إسبانيا وبدأت باحتلالها، ونجحت في الاستيلاء على أجزاء شاسعة منها، مما أهَّل هملقار ليكون في وضع مميّز إذا ما قرَّر مهاجمة روما ذاتها. ويروى أن هملقار، وعشية شروعه بمهاجمة إسبانيا، دخل الهيكل ليضرع إلى الآلهة أن تساعده لتحقيق الانتصار، وكان معه ولده هنيبعل، أو حنّيبعل، (معناه الحنان من الآلهة) الذي تأثَّر كثيراً بالمشهد ورجا والده أن يأخذه معه إلى ساحة الحرب في شبه الجزيرة الإيبيرية، وكان ما يزال فتى في التاسعة. واستجاب هملقار لرغبة ولده، ورفعه بيديه إلى تمثال البعل، وأقسم هنيبعل في تلك اللحظة أن يبغض روما طوال حياته، وأن يقاتلها ويحقق النصر له ولوطنه ووالده هملقار.

هنيبعل بطل قرطاجة

وفي هذه الأجواء، بدأت الحرب الفونية الثانية، وامتدّت ما بين ٢١٩ و٢٠٢ ق.م. وخلالها، أي في العام ٢٢١ ق.م. تولّى هنيبعل قيادة الجيش القرطاجي وكان في الخامسة والعشرين من عمره، وباشر بالوفاء بالقسم الذي التزمه أمام الآلهة، أي محاربة روما حتى الرمق الأخير. فشنَّ بعد عامين هجوماً على مدينة ساغنت التي كانت متحالفة مع الرومان واستولى عليها وسبى الكثيرين من أهلها، وواصل تقدُّمه في اتجاه شبه الجزيرة الإيطالية من البر الأوروبي، على رأس قوة من الرجال الذين يمتطون الفيلة والمشاة. وحقَّق إحدى أعظم الإنجازات الحربية في ذلك الزمن، أي عبور جبال البيرينيه الواقعة بين إسبانيا وفرنسا. ومن ثمّ جبال الألب، حتى صحَّت تسميته «قاهر جبال الألب». وكان البطل القرطاجي ينفِّذ بذلك خطة التفاف على أعدائه الذين كانوا يرابطون على الشاطىء المحاذي لجبال الألب.

وعلى الفور هبَّ الرومان لمواجهة الهجوم، فأرسلوا فيلقين مدربين لملاقاته، فصدَّهما وردَّهما على أعقابهما. وعندما شاهد الغاليون ما حلَّ بالجيش الروماني الذي كان يتحكم ببلادهم فرنسا، مالوا إلى هنيبعل وسار منهم الكثيرون إلى جانب

قواته المتوجّهة إلى الرومان في عقر دارهم شبه الجزيرة الإيطالية. وقُدِّر عديد الجيش القرطاجي المهاجم بنحو ٢٦ ألفاً، وأما الفيلة فعددها ما بين عشرين وأربعين.

ويرجّح بعض المصادر أن يكون هنيبعل قد اجتاز نهر الرون في أواخر آب من العام ٢١٨ ق.م. وعبر جبال الألب خلال أسبوعين فقط، وبلغ إيطاليا في أيلول حيث قطع نهر البو فيما قطع الرومان نهر كرابي والتقى الجيشان بعد أشهر، وفي طقس مثلج، وتحديداً في كانون الثاني من العام ٢١٦ ق.م. ويروي بعضهم أن هنيبعل رسم خطة عسكرية قضت بترك قلب القوى المهاجمة ضعيفاً، ممَّا أغرى الرومان بالانقضاض عليه، فما كان من الميمنة والميسرة، وهما المؤهلتان للهجوم، إلاّ أن أطبقتا تماماً على القوى المهاجمة وسحقتها، ممَّا شكل صدمة كبيرة للجيش الروماني الذي أعاد ترميم قواه وأعاد المواجهة مع القرطاجيين وعلى رأسه فلامينيوس في ٢٢ حزيران ٢١٦ ق.م. قرب بحيرة تراميزين. لكن المعركة انتهت بسقوط القائد الروماني والعديد من رجاله. وعمد هنيبعل بعدها إلى الإفراج عن الأسرى الرومان بدلاً من استعبادهم، وهي مبادرة نادرة في تاريخ الشعوب القديمة. وأصرّ الرومان على المواجهة لأن لا خيار لهم سوى ذلك للدفاع عن روما، فواجهوا هنيبعل للمرّة الثالثة في منطقة ساحلية قرب مدينة كان، لكن الهزيمة كانت أيضاً من نصيبهم، وقيل إنهم خسروا نحو خمسة وأربعين ألف رجل.

نهاية الحلم

وبلغ هنيبعل حصون روما وبدأ بالتخطيط لدكّها والدخول إليها. لكنه اكتشف أن في مسعاه صعوبة وخطراً، وأنه لا بدَّ لنجاح الخطوة من تعزيزات إضافية لقواه. وبعث برسائل إلى القوى القرطاجية المرابطة في شبه الجزيرة الإيبيرية يطلب تدخّلها لتكثيف الضغط على روما قبل بدء الهجوم، كما طالب بتدعيم المساعدة الضرورية لذلك. واستقرّ أمام أسوار روما ينتظر المساعدة، إلاّ أن شيئاً لم يكن في الحسبان ظهر في هذه الأثناء. فالمعلوم أن قرطاجة مدينة صغيرة وأن عدد أبنائها الأصليين

المنضوين في الجيش قليل جداً قياساً على الطموحات التي سعى هنيبعل وقبله هملقار إلى تحقيقها، ولذلك كان الجيش القرطاجي يعتمد في قواعده على مجموعات كبيرة من المرتزقة، وهؤلاء غلبهم التعب والخوف على أبواب روما العملاقة، وبدأوا بالفرار من الجيش، ممّا ساهم في الحدّ من سطوته واعتماد هنيبعل الأعمى عليه.

وفي هذه الأثناء تنادى قادة روما وحكماؤها للبحث عن الخطة الكفيلة بإسقاط هنيبعل بعدما فشلت مواجهته الميدانية، وارتأوا أن يعيّنوا أحد أبرز القادة العسكريين سيبيون على رأس قوة تهاجم قرطاجة في عقر دارها، فيما يبقى هنيبعل على أبواب روما، لعلّ ذلك يدفعه إلى الانسحاب وبدء معركة دفاعية عن الوطن. وهذا ما حصل فعلاً، إذ انطلق أسطول روماني عملاق نحو قرطاجة التي استدعت هنيبعل على وجه السرعة، فعاد فوراً وواجه الرومان في زاما الواقعة على الشاطىء الشمالي لأفريقيا، على مقربة من قرطاجة، وساعدت القبائل البربرية روما في حربها وانهزم هنيبعل في تلك المعركة وتضعضعت تماماً قواه العسكرية وانهارت معنويات قرطاجة لأول مرّة في تاريخها، وكان ذلك في العام ٢٠٢ ق.م. وهذا يعني أن هنيبعل حاصر روما نحو ١٤ عاماً دون أن يتمكّن من دخولها. وعقدت قرطاجة اتفاقية صلح مع الرومان هي أشبه باتفاق الإذعان، لأنها تنصّ على ألاّ تشنّ حرباً بعد ذلك التاريخ ما لم تأذن لها روما بذلك، وعلى أن يتخلى القرطاجيون عن اسطولهم البحري بأكمله إضافة إلى جزية عسكرية يؤدونها للرومان على امتداد نصف قرن.

كانت الضربة قاسية جداً على هنيبعل، وأدّت إلى بلبلة داخل قرطاجة استدعت تدخّله في محاولة لحسم الأمور في اتجاه إعادة الاستقرار والثقة بالوطن. وشاءت سخرية القدر أن تتحالف الطبقة الأرستقراطية الخائفة على مصالحها مع الرومان للمطالبة بإبعاده عن قرطاجة وتحميله مسؤولية ما وصلت إليه. فتوجّه إلى صور وطن أجداده لعلّه يلقى دعماً، لكن الزمان كان قد دار على هذه المملكة أيضاً وباتت عاجزة عن تلبية رغبته، فانتقل إلى بلاد الإغريق سائلاً أنطونيوس ملك

أيونيا دعمه ففشل، وكذلك بروزياس الذي كان يتولّى ملكاً على البحر الأسود. وعندئذ قرّر هنيبعل أن ينهي حياته بكرامة وشرف، فتناول السمّ وقضى منتحراً، ومعه انتهت أسطورة قرطاجة، وكان ذلك في العام ١٨٢ ق.م.

ولم تمض سنوات كثيرة حتى هدأ الوضع الداخلي في قرطاجة وبدأ أهلها يفكّرون في إعادة بناء مدينتهم والثقة فيها، وهذا ما أثار حفيظة الرومان الذين طلبوا منهم أن يتركوا قرطاجة ويبنوا لهم مدينة في الداخل الأفريقي، فرفضوا. وارتفعت أصوات في روما تدعو إلى إبادة قرطاجة لئلا تعود إلى الحياة وتسترجع قوتها. وفي العام ١٤٧ ق.م. بدأ الرومان حملة عسكرية عنيفة ضد قرطاجة الضعيفة، فهبَّ أبناؤها متناسين خلافاتهم لمواجهة الرومان. وانتهت الحرب الفونية الثالثة بالقضاء تماماً على قرطاجة بعد عام، ويقال إن النيران بقيت مندلعة في المدينة سبعة عشر يوماً، وأمّا سكانها فقضوا وسُبي من بقي حياً، وأزيل كل أثر للمدينة لئلاّ يأتي يوم يستعاد فيه بناؤها ومجدها.

إلاّ أن قرطاجة التي انتهت من الجغرافيا بقيت حيَّة في التاريخ وفي قلب كل لبناني وطامح إلى المجد والكرامة.

الفصل التاسع

هل سبق الفينيقيون كولومبوس إلى أميركا؟

إن فكرة وصول الفينيقيين إلى أميركا أو عبورهم المحيط الأطلسي ليست فكرة جديدة، كما أن فكرة وصول شعب آخر إلى أميركا قبل كريستوف كولومبوس بآلاف السنين هي أيضاً فكرة راودت المؤرخين مراراً. لكنها بقيت في طور التخيّل.

إنما ابتداء من الستينات، بدأت تظهر دراسات جدية في العالم الأميركي والأوروبي لتبرهن أن أميركا قارة عُرفت قبل القرن السادس عشر بكثير وأن شعوباً آسيوية زارتها قبل المسيح، وربّما على رأس هذه الشعوب الشعب الكنعاني الذي استوطن ساحل فينيقيا حوالي ٣٠٠٠ ق.م.

وتعتمد هذه الدراسات على براهين ودلالات، منها أن البحرية الفينيقية كانت الرائدة في مجال الإبحار، وبالتالي فإمكان عبور الفينيقيين البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي وارد، ومن هذه الدلالات آثار كثيرة عُثر عليها في البرازيل وأماكن أخرى.

ولكن كل هذه الدراسات لم تصبح بعد حقيقة علميّة ثابتة، ولم يقرّها علماء التاريخ وانقسمت حولها الآراء. إذ من الصعب إقرار حقيقة جديدة بعدما ثبت أن كولومبوس هو الذي اكتشف قارة أميركا في القرن الخامس عشر.

كولومبوس يكتشف القارة الجديدة

تأثر كريستوف كولومبوس الإيطالي الأصل، الذي كان تاجراً وقرصاناً، بالأفكار القديمة لأرسطو وسترابون وسواهما من أنه يمكن الوصول إلى الهند عن طريق الغرب، وحلم بتحقيق هذه الرحلة بهدف الوصول إلى الهند. لكن البحر قاده إلى مكان آخر، إلى الأرض الجديدة التي لم تكن معروفة حتى أواخر القرن الخامس عشر في العالم القديم وفي أوروبا.

ومن ليشبونة قام كولومبوس برحلته الاستكشافية الأولى عبر المحيط الأطلسي في العام ١٤٩٢، حيث وصل إلى شواطىء قارة جديدة، لكنه لم يدرِ بذلك، معتقداً أنه وصل إلى الهند عن طريق الإبحار غرباً، كما حلم بذلك.

ولاحقاً، قام بحار إيطالي آخر هو أمريكو فسبوتشي بالرحلة نفسها التي قام بها كولومبوس ما بين العامين ١٥٠١ و١٥٠٤، وتأكّد أن الأرض التي وصل إليها كولومبوس هي أرض جديدة، بل وقارة جديدة، أطلق عليها اسم العالم الجديد، ونُسب اكتشافها إلى كريستوف كولومبوس.

آفاق جديدة

ظلّ راسخاً في الأذهان طيلة خمسمئة سنة تقريباً أن اكتشاف أميركا هو حكر على كريستوف كولومبوس إلى أن بدأت تظهر دراسات في الستينات تتحدث عن أن هذه القارة قد اكتُشفت قبل القرن السادس عشر بكثير، وأن تواصلاً حصل بين هذه القارة والعالم القديم قبل العصر الميلادي.

وعُثر على آثار مختلفة منتشرة في أماكن متباعدة من القارة الأميركية لها صلة في طريقة أو أخرى بالفينيقيين، أو أنها متأثرة بالحضارة الفينيقية، ومن هذه الآثار قطعة نقود قرطاجية وجدت على جزر الأزور في عُرض المحيط الأطلسي. وهذا يدل، إن لم يكن إلى وصول الفينيقيين إليها، فعلى الأقل إلى أن الإبحار في متن هذا المحيط كان أمراً حاصلاً، وليس مغامرة مجهولة المصير أو مجرد خيال.

ويقول بعضهم إنه إذا كان ثمّة شعب قد وصل إلى المحيط الأطلسي فليس من المستبعد أن يكون هؤلاء الفينيقيين، نظراً إلى تمتعهم بملكة الملاحة والسيادة في البحر في العصور التي سبقت سيطرة الإغريق ثم الرومان.

وفي كتاب «الفينيقيون وأميركا فصول شغلت العالم» من ترجمة وإعداد د. عبد الله الحلو، ينقل عن فرانتسيوس قوله: «. . . ان إمكانية عبور السفن الفينيقية إلى أميركا لن يستطيع الإنسان أن ينكرها. غير أن التأثير الحضاري يمكن أن يكون الفينيقيون قد حقّقوه فقط عبر مواصلات بحرية نشيطة على مدى سنين طويلة وليس من خلال بعض السفن التائهة بالصدفة إلى هنالك (. . . .) إن الزمن الذي تقدّم فيه الفينيقيون من البحر المتوسط متوّغلين في الأطلسي ليس مجهولاً بالنسبة لنا،وهو زمن ليس مختبئاً في غياهب التاريخ المظلمة».

وبما أن الفينيقيين والقرطاجيين اجتازوا أعمدة هرقل وعرفوا جيداً الشواطىء

الغربية لأفريقيا وأوروبا، فإن احتمالاً آخر يطرح وهو أن تكون الرياح قد قادتهم صدفة في أثناء إحدى الرحلات خارج طرقهم البحرية إلى عُرض البحر، ومن هناك دفعت بهم التيّارات الاستوائية صوب القارة الأميركية، وأنهم لمّا تعرّفوا إلى هذه القارة كرّروا رحلاتهم إليها.

أمّا لماذا لم يسجّل التاريخ شيئاً أبداً عن وصول الفينيقيين إلى القارة الأميركية، فربّما لأن الفينيقيين أخفوا اكتشافهم للقارة الجديدة، وأبقوا الأمر سرّاً مكتوماً، وحتى أنهم حاكوا الروايات المخيفة عن أمواج المحيط الأطلسي وغضبه وعن السفن التي تغرق وتتكسّر في مياهه.

علاقة أميركا بالعالم القديم

نُشرت في أميركا وأوروبا أخيراً دراسات عدة تشير إلى وجود علاقة ما بين أميركا والعالم القديم، بما يبرهن أن أناساً من مرحلة ما قبل المسيح قد وطئوا قارة أميركا أو أقاموا علاقات معها.

وتقول هذه الدراسات والمقالات إن آثاراً عديدة اكتُشفت في أميركا يعتقد أنها تعود إلى عصور سبقت حضارة السكان الأصليين. ومن هذه الآثار آثار مدينة كوبان في هندوراس، وأنقاض مقاطعة تشياباس في المكسيك التي يقدِّر بعضهم أنها تعود إلى ما قبل ألفي عام، وتُظهر النقوش جنسين بشريين مختلفين تماماً، الجنس المنتصر من الأجناس الأميركية القديمة، والجنس الثاني جنس المغلوبين، وهو ذو ملامح تذكر بالشعوب السامية والكوشية في آسيا الغربية (من مقال بقلم هارتوغ هيس فات ساوتيفين عن مجلة Anthropologie - Archiv fuer, 1874 مترجم من الدكتور عبد الله الحلو)، كما عُثر على نقوش ورسوم لفيلة، ممَّا يمكن أن يوحي، لعدم وجود الفيلة في أميركا، بأن القرطاجيين قد أدخلوا معهم الفيلة في حملاتهم العسكرية وكانت سفنهم في ذلك التاريخ قادرة على نقل الفيلة والإبحار عبر مسافات طويلة.

واستناداً إلى مصادر الكتّاب الإغريق والرومان، فإن الفينيقيين والقرطاجيين كانوا يعرفون منطقة خارج أعمدة هرقل هي عبارة عن جزيرة كبيرة جداً، ويخفون أخبارها كأحد الأسرار خوفاً من المنافسة. وتختلف الآراء كثيراً عن مكان وجود هذه الجزيرة.

ولكن الكتّاب الإغريق والرومان يصفون هذه المنطقة بأن فيها خليجاً كبيراً، وأنهراً تصلح للملاحة ومدناً وحيوانات غريبة، وفيها الذهب والفضة. وهذه

المواصفات توحي بأن المكان المقصود، ربّما يكون جزر الأنتيل أو خليج المكسيك.

ويقول أفلاطون في حديثه عن المحيط الأطلسي أنه في مقابل أعمدة هرقل تقع جزيرة أكبر من أفريقيا وآسيا معاً، ومنها يستطيع المرء أن يعبر إلى اليابسة. . . وأن هذه الجزر قد اكتُشفت من قبل أحد الآلهة ذات الأصل الفينيقي.

في المصادر الأميركية

وفي الكتابات التي تعود إلى سكان أميركا الأصليين بعض الإشارات التي يستدلّ منها بعض المحلّلين إلى أن أناساً من العالم القديم قد زاروا القارة الأميركية قبل كريستوف كولومبوس بكثير.

ويرد في الكتاب المقدس عند السكان الأصليين في غواتيمالا رواية مفادها أن رجلاً أبيض ذا لحية أتى من البحر ونزل في المكسيك في زمان قديم جداً. ومعلوم أنه قبل كولومبوس، لم يكن في أميركا والمكسيك سكان من ذوي البشرة البيضاء وتتابع الرواية أن هذا الرجل الأبيض مع عشرين من مرافقيه انتقل إلى غواتيمالا، وأن هؤلاء كانوا يتقنون أنواعاً من الصناعة، كصناعة الحجارة الكريمة والذهب والفضة وسوى ذلك.

وتتردّد روايات كثيرة، حسب ما جاء في مقالة هارتوغ هيس فان ساوتيفين، في مدن القارة الأميركية عن شعوب غريبة قدمت إلى شواطىء القارة قبل الميلاد، وتتحدث هذه الروايات عن أن هذه الشعوب نزلت في المكسيك والپيرو وسواحل فلوريدا، وأنها أقامت مدناً بقيت خرائبها حتّى ١٠٠٠ سنة قبل قدوم الإسبان إلى أميركا.

آثار سامية أو فينيقية في أميركا؟

إضافة إلى كل البراهين التي وردت إلى الآن والتي استندت إلى كتابات قديمة وتحليلات، فإن بعض القائلين بأن الفينيقيين عرفوا أميركا يستندون ليثبتوا ذلك إلى عدد من الآثار التي عُثر عليها في أماكن مختلفة من القارة الأميركية.

من هذه الآثار حجر عليه نقش باليونانية وُجد في ترينيداد، وتمثال قديم من حجر الرخام عُثر عليه في ولاية نيويورك، وعلى اليد اليمنى لهذا التمثال نقش أبجدي. ووصفت مجلة The Galaxy الأميركية هذا التمثال، وأوردت تفسيراً للنقش مؤداه «تمور سيد السمٰوات هو بعل» ودُعي هذا التمثال تمثال أونونداجا. ومع أن بعضهم يعتقد أن التمثال حديث العهد، فإن دراسات أُجريت عليه أشارت إلى احتمال أن يكون هذا التمثال قديماً جداً.

إلاّ أن كتاباً عديدين شكّكوا في المقابل في أن يكون هذا التمثال مختلفة من أوّلها إلى آخرها، وأن أشخاصاً صنعوا هذا التمثال وسبغوا عليه لفحات قديمة ودفنوه في الأرض حتى يتمّ اكتشافه لاحقاً في مقاطعة أونونداجا في ولاية نيويورك.

من هنا فإن أكثرية الآثار التي اكتشفت في أميركا من هذا النوع ما تزال موضع شك في أن تكون عائدة إلى الفينيقيين.

نقش پاراپيا

پاراپيا مدينة برازيلية قيل إنه عُثر فيها على نقش فينيقي وصلت صورة عنه إلى مدير المتحف الوطني في ريو دي جانيرو السنيور نينو. وهذا الأثر أيضاً تضاربت التفسيرات والترجمات له. ففي حين أيّد بعضهم أن يكون النقش فينيقياً، نفى آخرون هذه المقولة معتمدين على ترجمات مختلفة للنصّ المنقوش.

وظل الأمر كذلك من حين اكتشاف النقش في العام ١٨٧٣ حتى العام ١٩٦٨، حين قرّر عالم الأوغاريتية غوردن الاهتمام بالموضوع، وبرهن أن النص ليس مزيفاً، وترجمه إلى الإنكليزية كالآتي:

«نحن أبناء كنعان من صيدون، مدينة الملك. التجارة قذفت بنا إلى هذه السواحل النائية ذات البلاد الجبلية، لقد ضحّينا بشبابنا من أجل مرضاة الآلهة والإلاهات في السنة التاسعة عشر لحكم حيرام ملكنا العظيم، لقد بدأنا رحلتنا من عصيون جبر عبر البحر الأحمر وأبحرنا بعشر سفن، نحن كنّا سوية في البحر منذ

سنتين حول الأرض التابعة لحام (أفريقيا) ولكن فرّقتنا عاصفة (من يد بعل) ولم نعد بعدها مع أصحابنا، وهكذا أتينا إلى هنا اثنا عشر رجلاً وثلاث نساء على ساحل. . . حيث أنا القبطان أوجِّه. ولكن لحسن الحظ يمكن أن ننال مرضاة الآلهة والإلاهات».

وهنا نسخة عن النص بالحرف الفينيقي ثم بالحرف العربي:

ن ح ن ا ب ن ك ن ع ن م ص د ن هـ ق ر ت هـ م ل ك س ح هـ ش ل ك
ن ا ا ل ا ي ز ر ح ق ت ا ر ص هـ ر م و ن ش ت ب ح ر ل ع ل ي و ن م
و ع ل ي و ن ت ب ش ن ت ت ش ع ت و ع ش ر ت ل ح ر م م ل ك ن ا ا ب ر
و ن هـ ل ك م ع ص و ن ج ب ر ب ي م س ف و ن ن س ع ع م ا ن ي ت ع ش ر ت
و ن هـ ي هـ ب ي م ي ح د و ش ت م ش ن م س ب ب ل ا ر ص ل ح م و ل د ل
م ي د ب ع ل و ل ا ن هـ ا ت ح ب ر ن ا و ن ب ا هـ ل م ش ن م ع س ر
م ت م و ش ل ش ت ن ش م ب ا ي ح ر ت ا ش ا ن ك ي م ت ع ش ر ت ا ب ر
ح ب ل ت ي ا ع ل ي و ن ت ي ح ن ن ا

المراجع

«تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحالي» ـ الدكتور فيليب حتي، منشورات دار الثقافة ١٩٧٨.

«صور حاضرة فينيقيا» ـ معن عرب ـ دار المشرق، بيروت.

«تاريخ لبنان الحضاري» ـ يوسف السودا ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٧٩.

«من تاريخ سوريا الدنيوي والديني» ـ المطران يوسف الدبس ـ ١٨٩٣.

«تاريخ سوريا» ـ جرجي ينّي.

«الفينيقيون وأميركا» ـ فصول شغلت العالم ـ ترجمة وتحقيق د. عبد الله الحلو ـ دار الفكر ـ ١٩٩١ .

Science et vie N° 937 - Octobre 1995.

المحتويات



Edito Creps
International